نساء رائدات

٦

من الغرب

املي نصرالله

أبو عبدو البغل

دار الكتب الحديثة

SCANNED BY JAMAL HATMAL

إمِلي نصرالله

نساء رائدات

مِنَ الغرب

(٦)

دار الكتب الحديثة

تصميم الغلاف: وسيم قيس

جميع الحقوق محفوظة للمؤلفة والناشر

الطبعة الأولى

٢٠٠١

دار الكتب الحديثة

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - محطة النويري - شارع عبد الغني العريسي - ص. ب: 14/5276 بيروت - لبنان

هاتف: 01/666700 فاكس: 009611/652052

جيرتي كوري

«اعتبرت العلم والفن من أمجاد العقل البشري».

الشبه بينهما يتعدّى الاسم، والاختصاص، ليشمل المنبت، قصة الصراع، فالنجاح، ومشاركة الزوج ورفيق العمر... ثم بلوغ تلك القمّة العلمية الشامخة، ومحطّة الريادة.

السيدة الاولى **ماري كوري** رائدة العلم. مكتشفة مادة الراديوم. والمساهمة الى أقصى حدود المساهمة في القفزة العلمية التي يقتات على مائدتها علماء العصر.

أما السيدة الثانية، وموضوع كلامي، **فهي جيرتي تيريزا كوري**. عالمة أخرى، رائدة، وبالغة الحدّ الاقصى في النجاح.

* * *

ولدت **جيرتي** في مدينة **براغ**، بتاريخ ١٥ آب عام ١٨٩٦ . وكانت تلك المدينة آنذاك ضمن الحدود النمساوية. وقد درست في البيت، على اساتذة خصوصيين حتى بلغت السن العاشرة. ثم انتقلت الى مدرسة خاصة للاناث. وكانت تلك المدرسة تعدّ الفتيات ليصبحن زوجات صالحات وربّات بيوت يُعتمد عليهن. لذلك لم تكن العلوم والرياضيات من المواد المعول عليها. لكن **جيرتي رادْنيتز** (اسمها بالولادة) رفضت هذه الحدود تقيّد عقلها. وحين بلغت السادسة عشرة من عمرها، كانت قد صمّمت على دراسة الطب. لكنها، وقبل أن تأخذ هذه الخطوة الكبرى، تحتاج الى دراسة علوم الكيمياء والفيزياء، وانفاق خمس سنين في دراسة الرياضيات، وثماني

SCANNED BY SAMAUSSABAL

سنين في تعلّم اللغة اللاتينية التي كان يعتمدها الاطباء في معظم بلدان العالم.

وكان هناك امكان لدراسة هذه المواد جميعاً في «**الجمنازيوم**» أو المعهد الثانوي العالي. ومن ثم تنتقل الى دراسة الطب مدة ست سنين.

ولكن ما هي الوسيلة الى دخول المعهد الذي يرفض قبول الفتيات؟...

الارادة موجودة. والفتاة مصمّمة على تحقيق الحلم، لكنها، قبل ان تسعى الى دخول المعهد، قررت ان تأخذ اجازة، كانت منعطفا في حياتها، بل فاتحة لطريق سعيها. فقد التقت رجلا علمت انه أستاذ اللغة اللاتينية في المعهد العالي. وقد أصغى الى مشكلتها وأفهمها أن الامور تصبح أسهل اذا هي اتقنت اللغة اللاتينية كما وعد بمساعدتها... وهكذا انكبّت **جيرتي** على دراسة هذه اللغة، ونسيت العطلة. وكان رفاقها، في مقرّ الاصطياف، يتساءلون «**ماذا جرى للفتاة الحلوة، ذات العينين اللوزيّتين والشعر الكستنائي؟**»... وبالطبع، لم يكن لديها الوقت للاجابة عن أي سؤال. وفي نهاية العطلة، كانت قد أنهت دراسة ثلاث سنين، وسنة أخرى في المعهد العالي، عملت خلالها بجدّ، ونجحت في الدروس المطلوبة للتسجيل في معهد الطب. وبالطبع لم تكن الامتحانات سهلة، وظلّت تردّد، حتى آخر لحظة من حياتها، أن تلك كانت المرحلة الاصعب... والامتحان الاقسى.

* * *

نجحت.

وكانت في الثامنة عشرة من عمرها حين دخلت كلية الطب في **براغ**، وهي واحدة من أعرق كليات **اوروبا**. وكان هناك طالب جديد في الكلية، طويل القامة، أزرق العينين، ويتميّز بالنباهة والطموح: انه **كارل كوري**. التقيا على مقاعد الدراسة، ونشأت بينهما صداقة دفعتهما الى العمل معا في الأبحاث الكيمائية الخاصة بالصحة. وكانت نتائج أبحاثهما تنشر في المجلات العلمية، حاملة توقيهما. واكتشفا ايضا أن هناك امورا كثيرة تجمعهما الى جانب العلم والابحاث الطبية، وفي مقدمتها الحب، والصداقة. وتوّجا هذه الروابط جميعاً بالزواج عام ١٩٢٠ .

لكن الحرب العالمية الاولى تدخّلت لتعرقل مجرى الامور؛ فقد خسرت بلادهما، ولم يعد أمامهما أي مستقبل لمتابعة الابحاث. وحين انتقلا الى **فيينا**، تابع **كارل** بحثه على نطاق ضيّق، بينما انصرفت **جيرتي** الى العمل في مستشفى للاطفال.

* * *

بالطبع، لم يكن ذلك غاية ما يطمحان اليه؛ وهكذا بدأ بحثهما عن فرصة للانتقال الى بلاد تفسح لهما في مجال البحث العلمي. وتقدّم **كارل** بطلب عمل الى مؤسسة الدراسات الطبية في **نيويورك**. فقُبل طلبه، وسافر، ثم لحقت به **جيرتي** للعمل في المؤسسة ذاتها. كان ذلك عام ١٩٢٢ . ومن بعد، لم يعد يؤخّرهما شيء عن البحث في تركيب الجسم البشري. وتركت لهما المؤسسة كل الابواب مفتوحة، مع حرية العمل كما يرغبان. وظلّت **جيرتي** تذكر ذلك

ذلك «والفرصة الرائعة» طوال حياتها...

* * *

بدأت مع زوجها أبحاثا على الأورام غير الطبيعية في الجسم. ثم انتقلا الى دراسة مادة «**الانسولين**» التي تعطى للحدّ من تزايد السكر في الجسم. وكانت تلك الخطوة الاولى لمتابعة تأثير هذه المادة، والتحولات الناتجة عنها، وبالتالي استخدامها كدواء لمرضى السكري.

وقد سجّلت نتيجة هذه الابحاث بالذات، ولا تزال تعرف في الاوساط الطبية «**بدورة كوري**». وقد أدّيا بذلك خدمة هامة للعلم والطب الشفائي معا.

* * *

في العام ١٩٣١ استدعت **جامعة واشنطن** الزوجين ليكونا في عداد أساتذة الطب فيها، كما قدمت لهما كل **الإمكانات** اللازمة لمتابعة أبحاثهما. وكان ذلك قبل ان يحصلا معا على جائزة «**نوبل**» للطب. والجدير ذكره ان **جيرتي** لم تكن تهتم اهتماما كبيرا بالتعليم، شغفها الاول هو البحث، واكتشاف الجديد؛ وكانت في المكانة، تساوي زوجها مساواة تامة. وهذا يذكّرنا بعدم المساواة الجامعية التي عرفتها زميلتها السابقة **ماري كوري**، حين لم يُسمح لها بالتدريس في كلية العلوم في جامعة **السوربون** الا بعدما شغر مقعد زوجها، بعد وفاته. وهذا ما دفع كاتبة سيرتها الى القول: «**حتى سيّدة من وزن ماري كوري، لا تبلغ المرتبة المؤهّلة لها الا فوق جثمان رجل...**» وذلك حدث في **فرنسا!**

* * *

كانت العلاقة بين الزوجين مثالية؛ فهما على أتمّ ما يكون من التفاهم، يصرفان وقت الفراغ والراحة في تبادل الآراء، ومقارنة الاكتشافات. وفي بعض الاوقات، وحين كان **كارل** ينصرف الى التعليم او الى القيام بأعمال اخرى لا تتطلّب مشاركة **جيرتي**، كانت هي تغتنم الفرصة لتهتمّ بشؤون المنزل، وترعى الحديقة، والازهار النادرة التي كان لها ولع بغرسها. ثم توسّع اهتمامها ليشمل رعاية ابنها «**طومي**» الذي جاء تتويجا لحياتهما الزوجية الهانئة. وحرص **كارل** على ألا تخفف زوجته من نشاطها، لتهتم بالطفل، فكان يعينها في التربية، كما تعاون معها في العمل. ويعود اليه الفضل الكبير في تمكن **جيرتي** من متابعة ابحاثها ونشاطها، في مرحلة مرضها، اذ وفّر لها أفضل الاجواء والظروف. ولم يدعها تشعر بأنها انتهت، بل ظل يشجعها ويسندها، ويدفعها الى ان تعمل من دون ان ترهق نفسها. ولم يفعل ذلك بالقول بل بالفعل والحضور.

ومن أجل اكتشافاتهما الجديدة والهامة، حصل الزوجان **كوري** على جائزة **نوبل** في الطب للعام ١٩٤٧ . وتقاسم معهما الجائزة العالم الارجنتيني **برناردو هوسي**. لكن هذا التقدير كان جزءا ضئيلا من ثمار النجاح، وبقي للعاملين في حقل الطبّ ان يتابعوا التقدير والعمل. وصار يقصدهما العلماء والباحثون من كل صوب.

* * *

وقبل أن ترافق **جيرتي** زوجها الى **ستوكهولم** عام ١٩٤٧ لتتسلم معه جائزة **نوبل**، كانت اعراض مرض غريب تنتابها، ولم تستطع، هي التي درست أمراض الآخرين، ولا تمكّن زوجها، من اكتشاف

نوع المرض. لكنها أبتْ أن ترضخ للضعف، واستمرت في العمل، حتى اذا وهن الجسد، أوت الى دارها، وانصرفت الى رعاية ازهارها وأغراسها الجميلة، حيث تستمد الراحة والامل. وبالطبع، لم تعد لها الطاقة على مرافقة **كارل** في تسلّق الجبال (رياضتهما المفضلة) ولا السباحة وممارسة شتى ألوان الرياضة. اكتفى الزوج بغرس البقول، وترك لها العمل الذي تجيد رعايته: غرس الازهار. وفي تلك الاوقات كان يتدخل بين الزوجين ابنهما الصغير، فيكلّفانه باقتلاع الاغراس الطفيلية.

وسمحت لها فترات راحتها في السرير، ان تطالع الكتب المؤجّلة. فقد كانت **جيرتي** قارئة نهمة. ولم تحدّد مطالعاتها في العلوم، بل اهتمّت بالتاريخ، وسير العظماء. الى جانب مطالعات ادبية وفنية، واعتبرت الفن والعلم من أمجاد العقل البشري.

كانت تحب الاصدقاء، واستمرت بعض صداقاتها سنوات. ولم تبخل على صديقاتها بوقتها؛ كما كانت تُمجد قيَما خاصة في مقدمتها: الامانة، الشجاعة واللطف. وظلّت حتى أواخر حياتها، تؤكد على اللطف اكثر من أيّة قيمة اخرى.

حين حصلت **جيرتي** على الجائزة الشهيرة، اعتبرت ثالث امرأة في العالم تبلغ ذلك المجد. انما كانت أول امرأة تدخل الجائزة الى **أميركا**؛ ولم تكن في أوج العافية، اذ ان أعراض المرض، كانت بادية عليها. ولكنها رفضت الضعف والخضوع. وظلّت تسعى وتعمل بإباء ولطف. وقد عاشت عشر سنوات من العذاب والالم الجسدي، كان يوازيها النجاح المتواصل، والتقدير المتزايد لها، ولعملها.

ولم ينحصر تكريمها في جائزة **نوبل،** اذ بدأت تنهال، عليها وعلى زوجها، الجوائز وألقاب الفخر والشرف. فقد أصبحا عضوين في الاكاديمية الوطنية للعلوم. ونالا معا جائزة الغرب العلمية. ثم شاركته جائزة أبحاثه في مرض السكر. ومنحت لقب دكتوراه فخرية في عدّة جامعات بينها: **يال، كولومبيا، سميث وروتشستر.**

وفي العام ١٩٥٠ طلب منها الرئيس **ترومان** ان تنضم الى المؤسسة الوطنية للعلوم. وبقيت في هذا المركز حتى أواخر حياتها.

* * *

لن أتمكن من تقديم الشرح العلمي لاهمية أبحاث الزوجين **كوري،** انما خلاصتها انهما لفتا الطب الى اهمية مادة السكر في تحوّلات تُصيب الجسم. كما قادت اكتشافاتهما الى فهم اعمق للتغذية عامة، وأصناف الطعام التي يستهلكها او يرفضها الجسم. وقد كانا بذلك من الروّاد. ومن هنا، كان الشبه بينهما وبين **ماري وبيار كوري،** اللذين ينتميان الى بلاد اخرى، وجنسية مختلفة، لكنهما مثل **جيرتي وكارل** جعلا العلم موطنهما، وكوّنا الثنائي الرائع، والنادر المثال ان في الحياة الاجتماعية او العلمية.

ثمة شبه آخر بين **ماري وجيرتي** وهو وفاتهما الباكرة، وبسبب مرض لم يتمكن الطب من شفائه.

يا لسخرية القدر!...

المرأة التي انفقت لحظات عمرها، في البحث عن تطوير الصحة البشرية، تخرّ صريعة مرض، ويعجز الطب عن اكتشاف علاج يشفيها او يخفف من آلامها!...

وهكذا كانت حالة **ماري كوري**.

وحين توفيت **جيرتي** في السادس والعشرين من شهر تشرين الاول عام ١٩٥٧، تركت بعدها فراغا كبيرا، في البحث العلمي، حاول الزوج ان يملأه، باسمها. اذ انصرف بكل ما تبقّى له من طاقات، الى العمل، واعتزل المجتمع، ولم يعد هناك طعم للحياة، بعيدا عن رفقة صديقته ورفيقة دربه. وقد تخلّى عن التعليم ليعطي كل جهده للابحاث التي تركتها **جيرتي**، العالمة المتواضعة، والمرأة اللطيفة، التي أدركت باكرا الفرق بين الحقيقة والخيال...

- النساء في العلم الحديث. تاليف إدنا يوست.
- الموسوعة البريطانية.

إميليا ايرهارت

«في قلبي عاطفة خاصة لإميليا. انها شخصية هامة، ولا يجوز أن تنسى».

اليانور روزفلت

اميليا ايرهارت، اشهر امرأة في تاريخ الطيران، وأول امرأة تطير فوق المحيط الاطلسي. ومع ان الباب مفتوح اليوم في وجه المرأة، لا لتقود طائرة وحسب، بل ومركبة فضائية، الا ان الفضل الاول يعود الى الرائدات اللواتي مهدن السبل الوعرة، ودفعن اغلى الأثمان من اجل تحقيق فكرة او حلم.

واميليا واحدة منهن، بل انها تقف مميزة في الطليعة، وقد عجز مرور الزمن عن اخماد الوهج المحيط باسمها، لان المرأة التي كانت اسطورة في حياتها، تحولت الى اسطورة اكبر بعد موتها... لكن هل ماتت **اميليا**؟

* * *

الجواب عن هذا السؤال اقتضى الباحثين في سيرتها جهدا كبيرا. ولم يعثروا على برهان اكيد. واذا اعتبرت في عداد الراحلين، فلكي يضع الكاتب نقطة الختام على السطر الاخير.

ومن بين أكداس الكتب والمقالات، ننبش الحكاية - الاسطورة:

ولدت **اميليا** في ٢٤ تموز، عام ١٨٩٧، في مدينة **أتشيسون** في الولايات المتحدة الاميركية. والدتها **ايمي اوتيس** سليلة اسرة عريقة في العلم، خصوصا القضاء. ووالدها **ادوين ايرهارت**، محام، قضى معظم حياته في الوظيفة. وكانت لها اخت اصغر منها تدعى **موريل**.

كانت **اميليا** منذ صغرها، تميل الى الرياضيات والفيزياء وتحب المغامرات في كل وجوهها، وقد انفتح لها باب جديد حين انتقلت العائلة لقضاء فصل الصيف في قرية ريفية. فتعلمت ركوب الخيل، وحلب الابقار وصيد السمك. وكان يمكن لهذه النعمة في العيش البسيط الهادئ ان تدوم لو لم يطرأ تحول في حياة الاب، دفعه الى الادمان، والغرق في المشاكل المالية، ثم السقوط من حين الى آخر في هاوية العذاب النفسي. وحالته هذه اثرت على **اميليا** كثيرا، وهي الابنة الكبرى، المتعلقة به، الفخورة بوجوده. وقد باتت ضحية صراع نفسي: فهي تحبه، لكنها اعجز من ان تنقذه. وهكذا سقطت في الم الضمير. وتحولت الى حماية امها وشقيقتها، وهي علاقة سوف تستمر في المستقبل حتى آخر لحظات وجودها.

* * *

ظلت العائلة تتخبط في التناقضات والام المتكبرة تقاوم، حتى سقط الجدار الاخير، عام ١٩٢٤، ولم تعد تقوى على الاستمرار في العيش مع رجل فقد صلته بالواقع، وتخلى عن اعتباره لها ولابنتيها. ولكي تحفظ له كرامته، فضلت الانفصال عنه. وكان طلاق، قسم العائلة، وابعد عنها الاب والزوج، الذي تابع صراعه على طريقته، وعثر على امرأة تزوجها ولكن ذلك لم ينقذه من ضعفه. وكانت **اميليا** تزوره. تساعده. ولم تحمل اي شعور سلبي للزوجة الجديدة. على العكس، حين توفي الاب، عام ١٩٣٠، كانت خارجة من زيارة سددت خلالها كل الديون المستحقة على الزوجين. وبالطبع، شاركت واختها، في مراسم الدفن. وكتبت الى امها تقول: «**زورت**

برقية باسمك. سأل عنك كثيرا. كان ارستوقراطيا. في اللحظات الاخيرة زال عنه كل الضعف، وبقيت له عينا الصبي المرتبك».

هكذا ختمت **اميليا** علاقتها بأبيها. اما امها فلها حكاية اخرى؛ اذ كانت خلفها، تشجعها لتدرس. وتعلمها، بالمثال، كيف يمكن للمرء ان يحتفظ بكبريائه، ولا يبحث مشاكله او يبوح بأحزانه للغرباء.

* * *

عام ١٩١٥ تخرجت الفتاة من ثانوية **هايدبارك** ثم دخلت معهد **اوغونتس** في **فيلادلفيا**. وكانت في مسارها، مثالا للطموح والتحرر. وبدأت في مرحلة مبكرة من حياتها، تشعر بعدم المساواة بين المرأة والرجل في فرص العلم والعمل. وحدث تحول اساسي في شخصيتها حين تخرجت من المعهد الداخلي... وقد ذكرت استاذة الادب فيما بعد انها: **حتى في قراءتها، كانت تسير نحو بحار مجهولة.**

* * *

خلال العام ١٩١٨ عملت **اميليا** في احد المستشفيات، ممرضة متطوعة، وكانت تلك السنة المشؤومة حين حصد وباء «**الانفلونزا**» عشرين مليون نسمة في العالم. وتركت التجربة اثرا عميقا في نفسها، جعلها تهزأ بالحياة، هي التي تحب الغوص فيها حتى الاعماق. وقبل ان تدخل جامعة **كولومبيا**، عام ١٩١٩، اختارت ان تدرس ميكانيك السيارات. اما هدفها الجامعي فكان دراسة الطب، اذ ظنت انها بذلك تستطيع ان تساعد الانسانية. لكن الواقع الدراسي غيّر النظريات، وبينما كانت لها الطاقة الكافية لاستيعاب المادة، اكتشفت انها لن

تقدم على ممارسة الطبابة. وقد تنصرف الى حقل البحوث.

* * *

ظلّتْ تتخبط في هذه الدوامة من الحيرة والقلق حتى لاح في افق حياتها نور جديد: فقد كان الطيران يمثل المستحيل والتحدي. وتساءلت: **ولماذا لا تقدر المرأة؟** سؤال طرحته في المطلق. ثم قضت سنواتها المقبلة في محاولة الاجابة عمليا، وبكل الوسائل والامكانات المتوفرة لها. ذهبت الى استعراض للطيران. وكانت الفرصة متاحة للحضور، بأن يُحلّق المرء مدة عشر دقائق في الجو، مقابل دفع دولار واحد. ودفعت، وطارت. وابصرت من الاعالي ما لا تبصره العين في مستوى التراب. وحال هبوطها، راحت تسأل عن تكاليف الدراسة، وصدمت بالمبلغ: الف دولار. مستحيل. لا تتمكن من دفع القيمة. لكن التصميم سبق الارادة. وحين حلّقت في ذلك المكان المرتفع، ادركت أنها خلقت لتطير. لم يسبق لاية تجربة او مغامرة ان فعلت في نفسها، ما فعله انفلاتها من الجاذب الارضي، حيث القلق والهموم... شعرت بأن السعادة كلها، في التحليق. وهنا، الحرية، والانطلاق... لكن من اين تحصل على المال؟

* * *

«**حين تكون هناك ارادة، يجد المرء سبيلة**» هكذا يقول مثال من بلادها. حددت الغاية، وبقي ان تجد الطريق. دخلت موظفة في شركة الهاتف، وكانت تجمع النقود لتدفعها الى استاذتها **نيتاسنوك** وهي اول امرأة تتخرج من معهد **كورتيس** للطيران. علمتها **نيتا** النظريات. والطرق العملية. وباتت تتنقل بين حقل التمرين، المرآب،

تتأمل الخبراء وعمال الميكانيك، تراقب الآلات. تتعرف الى الطيارين. تطرح عليهم الاسئلة... ومن خلفها ام تدرك توق الابنة، وتبحث عن وسيلة، للمساعدة.

كانت عندها غرف اضافية في المنزل. أجّرتها لطلاب. واحد منهم احب **اميليا**، ووجد بينهما امورا كثيرة مشتركة. هو يدرس الكيمياء. وهي تدرس الطيران... اي تحلق على متن الاحلام والخيالات.

الجميع توقعوا للفتاة زواجا سعيدا بهذا الشاب الرصين، الطموح... وهي كانت تحلق بعيدا عن كل الحسابات والتوقعات. فبرغم حبها **لسام تشابمان** بقي الحب الآخر طاغيا، بل كان التكريس التام. والرجل يطلب زوجة عادية، تهتم بشؤون المنزل، وتنجب الاولاد وترعاهم...

كانت الخطوة التالية **لاميليا** دراستها على يد طيار حربي هو **جون مونتيغو**. وفي هذه المرحلة، انتقلت للعمل في ستوديو للتصوير، كي توفر المال، وتدفع تكاليف الدراسة. ومن خلفها ارادة الام، وصوتها المشجع: «**اميليا تعرف ماذا تريد. انها لا تُقدم على عمل قبل التدقيق والفهم العميق. وهي قادرة على ذلك**».

وبالفعل، حققت الحلم. وتخرجت لتكون واحدة من اثنتي عشرة فتاة في العالم، اخترن طريق الريادة الفضائية. وتابعت الام مُساندتها، فاشترت لها طيارة مستعملة هدية لعيدها الخامس والعشرين.

* * *

هي الان في أوج الفتوة والانفتاح. والطفلة الشقراء، ذات العينين الزرقاوين، والتي تشبه لوحة مائية جميلة، اصبحت الآن امرأة، وصورة

جديدة تقتدي بها فتيات المستقبل: لقد وُهبت جمالا طبيعيا، قامة طويلة، رشيقة، واطلالة تفرض الاحترام، وطلعة ارستوقراطية، تجعلها تقف وحدها، ترسم لنفسها طريقا لا يشبه ايا من السبل التي سارت عليها النساء.

في طائرتها الاولى اقلعت امام اعين النظارة. وكان هناك الاب والام. وحلقت مدة ساعة، وحين عادت الى الارض، احاط بها بعض المسؤولين في المطار ليفحصوا «**الباروغراف**» او مقياس الارتفاع. وتبين لهم ان الفتاة المبتدئة قد سجلت رقما قياسيا جديدا في الارتفاع؛ اذ طارت على علو اربعة عشر الف قدم. اما هي، فكانت مشغولة البال. وانطلقت فور هبوطها الى قسم الميكانيك، لتبحث عن السبب الذي منعها من الارتفاع اكثر، فابتسم رئيس القسم وهو يرد عليها:

– لك تهانينا، يا سيدتي. لقد سجلت رقما قياسيا جديدا في الارتفاع.

وكان ذلك عام ١٩٢٢ .

* * *

إنها الان تحمل شهادة الطيران، لكن العمل غير متوفر. فعادت الى دراسة الطب. ثم لم تلبث ان توقفت، وراحت تبحث عن عمل... وقد وجدته في **بوسطن**، حيث تقيم مع امها واختها: بدأت تعلم اللغة الانكليزية اولاد المهاجرين من الصين او من سوريا ولبنان. ووجدت في عملها الجديد لذة، خصوصا الاختلاط بحضارات جديدة وغريبة عنها. وقد تفرغت في السنة التالية، وانصرفت للتدريس في مؤسسة

دنيسون. وفكرت الام ان هذا العمل الجديد هو قدرها. وجدت اخيرا ما يشغلها ويثير حماستها. كذلك عادت الامال تنتعش في صدر الصديق الذي احبها. وفكر **سام** انها بدلت موقفها منه. لكنها رفضت الزواج من جديد؛ ذلك ان قلبها كان مغروسا في الفضاء... هي التي ستحصل في مستقبل قريب على لقب يلائم شخصيتها: **غجرية الفضاء.**

* * *

في **بوسطن** التحقت بجمعية الطيارين ثم انتخبت نائبة الرئيس. وكانت تطير في اوقات الفراغ، وخلال عطلة الاسبوع. وفي العام ١٩٢٧ قام **شارلس لندبرغ** بالرحلة الاولى في التاريخ حين عبر المحيط الاطلسي بطائرته منفردا.

الفكرة ادارت رأسها: اذا كان هو يستطيع فلماذا لا تقدر هي؟ وجاءتها الفرصة. اللحظة الذهبية المنتظرة حلت. وراح القدر يمارس لعبته في حياتها.. وكان العام ١٩٢٨ .

اتصل بها الطيار **هيلتون رايلي** وسألها عمّا اذا كانت تحب ان تقوم برحلة طيران. ومن دون ان تتردد لحظة قالت:

– **نعم.**

كانت هناك سيدة مثلها تحب المغامرة. ولكنها قادرة على دفع الثمن. فقد اشترت **ايمي غيست** طائرة لتعبر بها المحيط الاطلسي، وكانت تبحث عن سيدة محترمة، لترافقها. واختيرت **اميليا** لتكون الرفيقة.

وفي الوقت نفسه، اتصل بها الناشر **جورج بالمربوتمان** وبدأ يحوك الاسطورة حولها.

اخذت اجازة اسبوعين من عملها في المعهد. وكتبت وصية اودعتها بين يدي صديقها **سام كي** ينفذها في حال فشل الرحلة وعدم رجوعها. وأُطلق على رحلة العبور اسم «**طيران الصداقة**». وكتبت **اميليا** في الوصية الى اختها: «**اذا نجحت الرحلة، يكون كل شيء حسنا، والا، فان اسفي الوحيد اني سأغيب عنك وعن الوالدة**».

لم تفكر كثيرا في الحزن الذي يمكن ان يخلفه الحادث في نفس والدتها. جاذب الفضاء كان يغلب الجاذب الارضي. وتأخرت الرحلة مرتين بسبب رداءة الاحوال الجوية، ثم حلت الساعة.

* * *

في الثالث من شهر حزيران ١٩٢٨ انطلقت الطائرة برحلة **الصداقة**، بينما هرع الناشر الى عقد مؤتمر صحفي اذاع خلاله ان امرأة تعبر المحيط الاطلسي بالطائرة، لاول مرة في التاريخ.

وكانت **اميليا**، بشعرها القصير، وثياب الطيران، تبدو شبيهة **بلندبرغ** مما دفع بعض الصحف الى تسميتها «**اللايدي ليندي**». وقد اضطرت، فيما بعد، الى ارسال كلمة اعتذار، الى زوجة **لندبرغ**، معتبرة التسمية نوعا من الدعاية التافهة التي ترفضها.

* * *

اما اهتمام الناشر **بوتمان** بالرحلة فله اسباب مهنية. إذ نشر قبل سنة كتابا من تأليف **لندبرغ**. وجاءته فرصة ذهبية حين قامت امرأة بالرحلة

ذاتها. **واميليا** حائزة على كل الصفات البطولية والجمالية التي تخدم الاعلام. ولم تنسَ البطلة ان ترسل برقية تطمئن الوالدة: «**مهما حدث لي، يكون السعي مستحقا**» **وردت الام الشجاعة**: «**لست قلقة. ليتني برفقتك. اتمنى لك حظا طيبا**».

ولم تكن تقدر، ولا ادركت الشقيقة ان الاعلام سيتفجر بقصة **اميليا**. فجأة كانت وسائل الاعلام تحيط بالمرأتين. تطلق الاسئلة. تطلب الصور. تريد ان تعرف كل شيء عن **اميليا**. وبين ليلة وضحاها تحولت الفتاة الى اسطورة...

* * *

استغرقت رحلة العبور عشرين ساعة واربعين دقيقة. وهذا هو العنوان للكتاب الذي ستضعه البطلة حال عودتها. وصلت الى **ويلز** بتاريخ ١٨ حزيران. ومن هناك انتقلت الى **لندن**. وبدأت الاحتفالات، واعتبرت نجمة سقطت من سماء مجهولة. كانت الجماهير تحيط بها، والصراخ يعلو من حولها كيفما تحركت. وترتفع الأيدي لتلمس طرف ثوبها. وكانت هي سعيدة بالذي يجري. لكنها رفعت قناعا فوق الوجه لتحمي ذاتها، اذ شعرت بأن للشهرة ثمنها ايضا.

بعد اسبوعين من التكريم على أرفع المستويات عادت على متن الباخرة «**روزفلت**» لتُستقبَل بحفاوة بلغت اقصاها، حين اندفعت الجماهير لتحمل العربة المكشوفة التي تُقلها. وكانت تسمع اسمها ينطلق من كل مكان. وسمعته منغما عذبا من اصوات تألفها: «**اهلا. يا آنسة ايرهارت.. هذا انا، سامي... انا، ماراك...**»

وكانت تلك بعض اسماء تلامذتها من معهد **دينيسون.**

* * *

ابتداء من هذه النقطة، يبدأ **جورج بالمربوتمان** يلعب دوراً مهما في حياة البطلة. فهو لا يملك مؤهلات الشهرة، لكنه يعرف كيف يستغلها او يصنعها. وضع نفسه في خدمتها. وبات وكيل اعمالها. وهو الذي نصحها بأن تعتزل فترة لتؤلف الكتاب الذي خطط له، وبدأ يمهد بالإعلام والدعاية. ومن اجل ذلك، قدم لها منزله الفخم، والمنعزل، لتكون في افضل الحالات النفسية التي تساعدها على التركيز والعمل. وكانت هي موضوعا قابلاً، فأطاعت، ثم رسم لها خطة اخرى، فنسق مع الجامعات والاندية الثقافية والنسائية، لسلسلة محاضرات تلقيها **اميليا**، عن هذه التجربة المذهلة. وكان يُملي عليها النصح والاراء ويوجهها، في اي المجلات تكتب وماذا تكتب؟ كذلك اشار عليها بأن تتخلى عن عملها في التدريس.

واحبت **اميليا** حياتها الجديدة. عاشت في ارجاء المنزل الفخم، مرتاحة، سعيدة. وكتبت بكثير من البساطة والاخلاص، قصة «**رحلة الصداقة**» واهدت الكتاب الى السيدة المضيفة التي سهرت على راحتها: **دوروثي بوتمان**، زوجة الناشر.

* * *

عام ١٩٢٩ كانت مرحلة الانعطاف في حياة **اميليا**، ومرحلة اتخاذ القرار النهائي: انها مكرسة للطيران. وباتت، بفضل الجهد الذي تبذله، قادرة على اعالة الوالدة، وتسديد ديون الوالد المريض. والبقاء مستقلة، سيدة عمل، وبطلة وطنية.

لكن بابا آخر انفتح امامها للحوار: فقد انفصل **جورج بالمربوتمان** عن زوجته وانتهى الى الطلاق. وها هو يطلب يد **اميليا**، فترده. لكن الرجل عنيد. مثلها يضع هدفا، ثم يتجه صوبه. والزواج بها بات هدفه الاول.

ست مرات تقدم يطلب يدها. واخيرا وافقت، واعتبرت هذا الزواج الذي لم يكن بدافع الحب، شركة بين اثنين. وهذا يتضح من الشروط المكتوبة التي تقدمت بها، ووافق عليها؛ ففي هذه الشركة الثنائية مصلحة لكلا الطرفين؛ فهي لن تجد من يبرع في ادارة حياتها، واستغلال كفاءاتها، وارشادها الى التقدم، بصدق واخلاص، مثلما يفعل هو، وبالفعل تزوجا في ٧ شباط، عام ١٩٣١، واقيم احتفال مختصر في منزل والدة العريس. وبعثت رسالة الى أختها تقول فيها: «**ارجو ان تخبري الوالدة بهدوء..**» واجابت الام الحكيمة في الصحف كما يُنتظر منها ان تجيب: «**اذا كانت ابنتي سعيدة، فأنا كذلك**».

لم يتبع الزواج رحلة عسل، بل رحلات عمل متوالية في الطائرة. ثم طلعت الفكرة الجديدة، لتقوم بعبور الاطلسي منفردة، وتسجل انتصارا جديدا.

* * *

استعدت للرحلة في ٢٠ ايار من عام ١٩٣٢ . خرجت من البيت، وتوجهت الى المطار، بعدما تركت على طاولة المطبخ ملاحظة للطباخة: لا تعدي عشاء الليلة.

الرحلة كانت اسرع من الاولى. اجتازت المسافة في مدة خمس عشرة ساعة وتسع وثلاثين دقيقة. وسجلت الرقم القياسي الذي لم يسبقها اليه احد، واصبحت بذلك:

– **اول امرأة تعبر المحيط الاطلسي.**

– **واول امرأة تطير منفردة خلال عبوره.**

– **اول امرأة تقوم بالرحلة مرتين.**

وقد هبطت في سهول **ايرلنده** قرب **لندنديري** وقالت فيما بعد، مازحة: «**لقد افزعت الابقار السارحة في الحقول**».

وكان اول من استقبلها مُزارع، تقدم منها وهو لا يصدق ما تبصره عيناه.

ابتسمت له وقالت:

– **انا قادمة من اميركا.**

– **الآن؟**

سألها الرجل بدهشة. فأجابت:

– **نعم. الآن.**

عندها احضر من يحرس الطائرة، ثم نقلها في سيارته مسافة ستة اميال الى اول جهاز تلفوني، لتعلم زوجها بوصولها. وتحركت اسلاك البرق، ناقلة نبأ وصولها. وأعدت لها احتفالات كبرى. ونالت عضوية شرف في نقابة الطيران البريطاني. ووسام جوقة الشرف. والوسام الذهبي لجمعية الجغرافيا الوطنية. وهي اول امرأة تحوز عليه. وراحت الدعوات تنهال عليها لزيارة العواصم الاوروبية. وحيثما

حلّت، كانت تُستقبل بالحفاوة. وتُفتح لها قصور الملوك والحكام. وحين غادرت الشاطئ الاوروبي، رافقتها ثلاث طائرات وراحت تنثر خلفها الزهور حتى اقلعت الباخرة التي حملتها في طريق العودة.

ولمْ تلبث ان بدأت تستعد لرحلة جديدة ومختلفة عن كل ما سبق. شاءت ان تدور حول العالم، وتعود الى نقطة انطلاقها. وهذه رحلة التحدي الكبير في عصر لم يكن يعرف الآلات الالكترونية. لكن المرأة عنيدة، وخلف الابتسامة الصبيانية والمظهر البسيط اللامبالي، ارادة من حديد.

* * *

كان عليها ان تعيش اشهرا في عزلة الاستعداد، وتحسب كل الحسابات بدقة. اذا كان الخطأ محتملا فوق الارض، فهو غير مقبول في الفضاء. وفي ١٧ آذار عام ١٩٣٧ اقلعت، دون إعلان سابق من مطار **لوس انجلوس**. وكان هناك مصور واحد التقط مصادفةً صورة للطائرة وهي تعبر جسر **البوابة الذهبية**. ولم يكن يعلم، انه بالتقاط المشهد الرائع، كان يسجل لحظة تاريخية.

في تلك السنة، كانت **اميليا** ستبلغ عامها الاربعين، وشاءت ان تتابع تمهيد السبل لمن يأتي بعدها. وهي تفكر في الشيخوخة الصعبة، ولا تدري كيف تواجهها: «**لا استطيع ان اتصور مظهري آنذاك**».

توقفت في مطار **هونولولو**. وبالطبع لم تكن وحدها، رافقها اثنان من خبراء الطيران والميكانيك. وبعدما اقلعت الطائرة عادت فهبطت اضطراريا ولم يُعرف السبب الحقيقي لذلك. لكن **اميليا** كانت مصممة على المضي في الرحلة التاريخية.

وبعد اصلاح العطل عادت لتقلع من جديد، وكانت طائرتها «**لوكهيد الكترا**» في انتظارها.

الساعة تقارب السادسة صباحا. مطار **ميامي** يكاد يكون خاليا. لم يُعلن عن الرحلة و**اميليا** ورفيقها الطيار **فريدنونان** كانا على استعداد. من دون انذار، انطلقت في اول رحلة رسمية حول العالم. وبعد الاقلاع بدقائق، بثت محطات الراديو النبأ. وبقي الخبر على الصفحات الاولى، مدة اثنين وثلاثين يوما.

لقد نجحت في بلوغ الهدف. وحققت الجزء الاكبر من الرحلة. لكنها، في طريق العودة، ضلت السبيل.

* * *

– **ماذا جرى لاميليا؟**

انطلق السؤال ثم لم يعد يتوقف...

حتى الآن يطرحونه. وبدأت تُحاك حول اختفائها الاساطير: هناك من قال انها، كصديقة للرئيس **روزفلت** وزوجته **اليانور** كانت تقوم برحلة تجسّس في **اليابان**. وهناك من اخبر بأنهم ابصروها تسقط، ثم تختفي. او انها فقدت الذاكرة وبقيت تعيش في ذاكرتها الجديدة بعدما اصبحت زوجة صياد ياباني.

لكن السيدة **رزفلت** دحضت الاشاعات بقولها: «**كنا نحب اميليا حبا كبيرا لا يسمح لنا بأن نرسلها الى حتفها**».

لقد كانت **اميليا** كبيرة في واقعها، وفي اسطورتها. لذلك كان يصعب على اي انسان ان يصدق أن طائرتها فرغت من الوقود، في طريق العودة، وسقطت في المحيط الهادئ، قبل ان تبلغ الشاطئ،

وحدد مكان سقوطها قرب جزيرة **هاولاند** في **غينيا الجديدة** وذلك بتاريخ الثاني من تموز عام ١٩٣٧ وقبل عيدها الاربعين بعشرين يوما.

وكانت امها اشد الرافضين لقصة موتها: «**اميليا حية... انها عائدة، قريبا تعود**».. وهذه الام ظلت اثنتي عشرة سنة تخرج الى الشرفة، في وقت قريب من غروب الشمس، وتسرح نظرها صوب «**جسر البوابة الذهبية**» وتنتظر.

والبطلة الراحلة، لفت الاسطورة في جيب خفي من جيوب سترتها الفضائية، وحلقت، بعيدا، تضحك بسخرية وتردد: «**حين ارحل، افضل الرحيل في طائرتي. وبسرعة...**»

وهكذا كان.

- الاجنحة المحلّقة - سيرة حياتها كتبها زوجها جورج بالمربوتمان.
- الموسوعة البريطانية.

مرغريت ميتشل

«كبرتُ، في زمن كان الأولاد فيه يجلسون ويصغون، ولا يفتحون أفواههم... وذلك يعني أني سمعت قصصاً كثيرة عن الحرب الأهلية».

كان يمكن لهذه المرأة الصغيرة القد، النحيلة والعادية الملامح، أن تظل واحدة من مئات النساء المغمورات في مدينة **أتلانتا** في ولاية **جورجيا** الأميركية.

أو كان من الممكن لاسمها أن ينتشر ضمن حدود مدينتها، وذلك من خلال مقالات نشرتها في الصحف المحلية.

لكن **مرغريت ميتشيل** تجاوزت نفسها، ومدينتها بل وقارتها... وحلقت في الكون، على جناحي كتابها الوحيد والأسطوري الشهرة: «**ذهب مع الريح**».

* * *

وبينما أسجل إسمها بين النساء الرائدات، لا أستطيع إلا أن ألاحظ فرديَّة هذا الحدث في تاريخ الأدب العالمي، إذ إن كتّاباً كثيرين اشتهروا بعد نشرهم الكتاب الأول، لكن تثبيت تلك الشهرة كان يحتاج إلى أكثر من كتاب. وربما احتاج إلى جهد العمر.

* * *

ولدت **مرغريت** في مدينة **أتلانتا** - ولاية **جورجيا** الأميركية عام ١٩٠٠، وهي تنتمي إلى أسرة من الطبقة المتوسطة، المرتاحة. وكان من الطبيعي، والعصر يشهد بدء تفتح الوعي النسائي، أن تدخل أحد المعاهد الراقية في مدينتها، ثم تنتقل إلى الدراسة الجامعية في «**سميث**

كولدج». لكنها اضطرت إلى مغادرة الجامعة باكراً لتعنى بشؤون أبيها وأخيها.

وحين بلوغها السن التاسعة عشرة، دخلت المجتمع الراقي، مثل أية فتاة من طبقتها، ثم فجأة قررت أن تتخلى عن حياة الفتاة المرفهة لتبدأ عملها في الصحافة.

في العام ١٩٢٢ باشرت الكتابة لمجلة «**صانداي ماغازين**» وصحيفة «**أتلانتا جورنال**»، وهما صحيفة ومجلة محليتان. وأول تحقيق كلفت بكتابته هو مقابلة مع سيدة من الطبقة الأرستوقراطية كانت قد عادت من رحلة استجمام في أوروبا. وكان على **مرغريت** أن تطرح أسئلة حول أحدث الأزياء، وموضة الشعر والماكياج، وآخر مبتكرات الأناقة الأوروبية. و«**مصادفة**»، سمعت من تلك السيدة، أنها شهدت انقلاباً سياسياً هاماً خلال وجودها في **إيطاليا**، وعلى يد شاب يدعى «**موسوليني**».

وهكذا، تحول المقال عن السفر والأزياء، إلى تحقيق سياسي، تناول الأوضاع السياسية في **أوروبا**، ومشاكل التغذية في **ألمانيا**. وختمته بتوقعها نشوب حرب في القارة الأوروبية.

* * *

مقالها الأول هذا، ثبتها صحافية ذات رؤية، ونظرة بعيدة. ولم تتخصص في موضوع معين، بل طرقت كل المواضيع، وهذا فتح لها المجال كي تطلع على معلومات منوعة، وتحصل على خبرة واسعة. كما أن هذا العمل كان واسطة لتعرفها على **جون مارش**، زميلها في العمل، وقد أحبته حباً انتهى بالزواج.

وتابعت **مرغريت** عملها المفضل فترة قصيرة، قبل أن تستقيل من الصحافة، بسبب حادث أصابها في قدمها وألزمها الفراش. وزاد المشكلة إصابتها بداء العصبي، الذي كان يسبب لها آلاماً شديدة.

ولكي تقضي على الضجر والوحدة، وتنسى الألم، انصرفت إلى المطالعة. وظلت تعيش مع زوجها حياة بسيطة في شقتها الصغيرة، ولم تقدّر أنها تمر في مرحلة التحول الكبير في حياتها.

* * *

لم تكن مطالعات **مرغريت** بقصد التسلية، إذ إن موضوعاً معينا، ظل يشغلها، وركزت مطالعاتها حوله، وهو الحرب الأهلية التي شهدها، وعانى منها الجنوب الأميركي معاناة قاسية.

وقد ساعدها زوجها في جمع الكتب والمراجع، التي تحمل معلومات حول هذا الموضوع، ثم لم تلبث أن أحست، بأنها استهلكت طاقتها للمطالعة، وأن طاقة جديدة تولد في اعماقها، هي الطاقة التي دفعتها إلى كتابة رواية، تضم بين صفحاتها ثمرة جهدها.

* * *

وكانت **مرغريت** قد حفظت العديد من حكايات الحرب وأخبارها، منذ أيام الطفولة، أي حين كانت ترافق والدتها في زيارات عائلية.

وبقي ذكر الحرب ملازماً صباها، وكثيراً ما كانت تلتقي رجالاً شاركوا في خوض المعارك، فتصغي إلى أحاديثهم وحكايات مغامراتهم بكثير من الشغف والاهتمام، وتسجل ما تسمعه في تلك الذاكرة العجيبة التي يشهد عليها كتابها.

* * *

مهم جدًّا أن نطّلع على الأسلوب الذي اتبعته **مرغريت** في كتابة روايتها الوحيدة. فقد أقبلت عام ١٩٢٦ على الكتابة، هرباً من الضجر والألم، ثم غاصت في أخبار تجمعت لديها، عن الحرب الأهلية في بلادها، كما قرأت تاريخ الحروب لدى شعوب أخرى. وحولت حصيلة معلوماتها وخبرتها، إلى قناة التأليف الذي استغرق عشر سنين...

ويعطي زوجها شهادة هامة في الأسلوب الفريد الذي اتبعته في الكتابة فيقول:

«انها لم تكن تتبع نظاماً خاصاً، بل كانت تكتب الفصل الأخير أولاً، ثم تعود فتبدأ فصلاً من الوسط، أو البدء»...

المهم انها لم تكن تسكب الشخصيات أو الأحداث في قالب الكتابة إلا بعد تكامل تلك الشخصيات في ذهنها. وحين تتعقد الأمور، كانت تصرخ بزوجها:

- جون.. عندي مشكلة، يا جون...لقد أكملت تكوين الشخصية، لكني عاجزة عن تحريكها. أريدها أن تمشي وتعيش حياة طبيعية.

وكان لها مزاج اختياري خاص، فهي تعيد كتابة كل فصل، عدة مرات. وربما أعادت كتابة بعض الفصول سبعين مرة. لكن المعدل العام لإعادة الكتابة لديها، هو عشرون مرة. فأي صبر كان لها؟!... أي مزاج؟!

والطريف أنها كانت تنتهي من كل فصل على حدة، وتضعه داخل غلاف خاص، ريثما تكمل سواه. ولكن ذلك لم يؤثر على

ترابط الأفكار، والتحام العمل، إذ استطاعت أن تشبك الرواية، وتعيد حياكة أطراف الفصول بمقدرة خارقة.

* * *

إن انتشار روايتها التي صدرت عام ١٩٣٦ أقرب إلى الأسطورة، إذ بيع منها، في الأشهر الأولى، خمسون ألف نسخة، وأعيد طبعها عشرات المرات، ثم ترجمت إلى ما يزيد على العشرين لغة. وطُبعت على طريقة «**براي**» ليتمكن المكفوفون من قراءتها، كما سجلت على أسطوانات.

وكان من الطبيعي أن تقبل السينما على إخراج الرواية الرائعة، ونالت الكاتبة حصتها خمسين ألف دولار. وقد مثل أدوار البطولة في الفيلم جماعة من أبرز الفنانين في حينه أمثال: **فيفيان لي، كلارك غايبل، وليسلي هوارد.**

ونال الفيلم الجائزة الأكاديمية للسينما. وأصبحت الشخصيات الرئيسة في الرواية: «**ريت**» «**سكارليت**»، «**أشلي**» و «**ميلاني**» في شهرة أبطال روايات **شكسبير**. وبات اسم المؤلفة، على كل لسان... هذا كله، **ومرغريت** لم تكن تقصد أن تنشر الرواية، كما لم تكن مستعدة لمواجهة الشهرة، وما تتطلبه من مزاج، فبين عشية وضحاها، راحت الرسائل تنهال عليها. ودائرة قرائها تتوسع، والناس يكتبون ليشكروها على الشجاعة التي ألهمهم إياها الكتاب.

وقد ازدادت رقعة شهرتها إبان الحرب العالمية الثانية، وبعدها. وكتب لها المعذبون في الحرب، ليخبروها بأنها نطقت بلسان كل واحد منهم، وأمدتهم بالشجاعة التي فقدوها في أيامهم العصيبة،

وباتوا في أشد الحاجة إليها كي يستمروا في الحياة. كما غرست الأمل موضع اليأس، وبثت في نفوسهم الرجاء وراح البعض يتساءل:

- هل استمدت شخصياتها من حياة أناس عرفتهم؟..

* * *

ولم تجب **مرغريت** عن هذا السؤال. بل تولى الرد عنها زوجها جون إذ قال:

- إن شخصياتها مستوحاة من الحياة. لذلك هي نابضة بحرارة الوجود، ولا ضرورة لأن تكون مبنية على حياة أفراد معينين.

- ومن أين جمعت معلوماتها عن الحرب؟..

عن ذلك تجيب المؤلفة فتقول:

- «كبرت في زمن كان الأولاد يجلسون، يصغون، ولا يفتحون أفواههم. وذلك يعني أني سمعت قصصاً كثيرة عن الحرب الأهلية، عندما كنت أرافق أهلي لزيارة عائلات عاشت الحرب، واكتوتْ بنيرانها، ومن هؤلاء عرفت كيف كان الناس يموتون، والجرحى يعالجون بطرق بدائية. واكتشفت تدنّي مستوى العلاج في المستشفيات. وتعلمت الكثير عن الوسائل التي لجأ إليها الناس حين ضيّق عليهم الحصار، ولم يعد لديهم ماء أو طعام ووقود. وأخبرت عن النساء اللواتي خرجن لمساعدة الجرحى. وسمعت المناقشات بين المحاربين القدامى في أتلانتا... وباختصار، فقد نشأت على سيرة الحرب».

ووضعت **مرغريت** خبرتها وتجاربها الفكرية والحياتية، بأسلوب بعيد عن التكلف، ولغة بسيطة هي لغة الناس اليومية. أو لنقل: إنها لغة الحياة.

وكتابها «**ذهب مع الريح**» يخلد انتصار الجنوب في بلادها، لا في الحرب وحسب، بل وفي الحياة التي أنعشتها، عبر الرموز والشخصيات الحية. وهي ترى أنه «**في الكوارث والزلازل والحروب الكاسحة، الأقوياء وحدهم، يستمرون في الحياة. والمؤسف أن الأفكار الشرسة تستمر معهم**».

* * *

أما الوحي الذي يستلهمه قارئ «**ذهب مع الريح**» أينما كان، وفي أي وطن، فيلخص في الاستنتاج التالي: «**إذا تمكن الجنوب الأميركي من النهوض، فكل بلد تصيبه الحرب، يمكن أن ينهض، ويتغلب على الهزيمة...**».

هذه الرسالة قرأها الأوروبيون الذين جرفتهم رياح الحرب العالمية الثانية، وحاصرتهم في الملاجئ، وفي الزنزانات، والزوايا المظلمة.

وهؤلاء لم يكتفوا بالرسائل، بل قدم المئات منهم لزيارتها، بعد انتهاء الحرب. جاءوا ليقولوا لها:

- «**قرأنا كلماتك، وتعزينا في الشدائد، إذ شعرنا بأن هناك من يدرك كم هو عميق ألم نفوسنا. ومنها استلهمْنا الصبر والشجاعة وحب الحياة**».

* * *

وكان من الطبيعي أن تنتزع الرواية إعجاب النقاد، لا جمهور القراء وحسب. ونالت المؤلفة جائزة «**البوليتزر**» وهي أكبر الجوائز الأدبية في حينه - وفي مرحلة شهرتها الجديدة، انتقلت لتسكن في شقة أكبر، زينت جدرانها بلوحات فنية، تمثل أرضها وسماء بلادها.

واستعانت بسكرتيرة لترد على رسائل القراء والمعجبين. ثم لم تلبث أن وظفت سكرتيرة ثانية، وكانت تعمل معهما، أحياناً، حتى منتصف الليل.

الرسائل والمقالات التي كتبت إلى **مرغريت**، وعن كتابها تجاوز حجمها حجم الكتاب. وبلغ مبيع الكتاب بعد مرور عشر سنوات على صدوره، ثمانية ملايين نسخة، كما انتشر في أربعين بلداً وترجم إلى ما يزيد على العشرين لغة.

أما الفيلم، فبقي على لائحة الأفلام الأشهر، والأشد جاذبية للجمهور، في العالم، طوال عشرين سنة.

* * *

واكتفت **مرغريت ميتشيل** بانتصارها، الساحق، ولم تحاول أن تنشر رواية ثانية. بل انصرفت، في السنوات التالية، إلى العمل في المؤسسات الاجتماعية، ومساعدة المشاريع الخيرية. أم أنها كانت تعد رواية لم يسعفها الحظ على إنهائها؟

تبقى هذه التساؤلات بلا أجوبة، ويظل عملها الملحمي هذا، من أهمّ الاعمال الأدبية التي عرفها العصر. بل تظل «**ذهب مع الريح**» الرواية «**التي هزت العصر**» حسب رأي النقاد.

* * *

ومرغريت لم ترزق اولاداً. ظلت حياتها الشخصية خاصة بها، وبعيدة عن عالمها الأدبي. وزوجها الذي ساعدها في مرحلة صعودها، أصيب عام ١٩٤٥ بنوبة قلبية. وكانت قد فقدت والدها قبل ذلك بعام واحد.

* * *

لكن المأساة الحقيقية حلت بها شخصياً في السادس عشر من شهر آب، حين صدمتها سيارة، بينما كانت تجتاز الشارع، لحضور عرض خاص لفيلم «**ذهب مع الريح**».

ولم تنهض **مرغريت** من تلك الصدمة. حملوها جثة هامدة. وكانت وفاتها عام ١٩٤٩ صدمة كبرى للمعجبين بها.

وعم الحداد مدينة **أتلانتا**، مدينتها، حيث اعتبرها الناس قديسة. وانهالت رسائل التعزية على زوجها من ثلاثين بلداً. لكن الكلام ظل عاجزاً عن تعزية الزوج الذي فقد برحيلها، «**سيدة عظيمة وحبيبة عاش برفقتها ربع قرن من السعادة**».

- مرغريت ميتشل: ذهب مع الريح - تأليف: مرغريت ميتشل.
- الموسوعة البريطانية.
- مجموعة مقالات من المركز الثقافي الأميركي في بيروت.

مرغريت ميد

«إن الأجداد يحتاجون الى أحفادهم كي يبقى العالم المتحوّل نابضاً بالحياة... كذلك يحتاج الأحفاد الى أجدادهم ليساعدوهم على معرفة اصلهم...».

لم يسبق لامرأة أن أثارت في حياتها غبار المشاكل والقضايا الفكرية والإِنسانية مثلما فعلت **مرغريت ميد**، عالمة **الأنتروبولوجيا** (علم الإِنسان)، وإحدى اهم الشخصيات العلمية في القرن العشرين.

ومرغريت أميركية الجنسية، وقد بدأت بناء شخصيتها العلمية، عندما وضعت قدمها، ولأول مرة، فوق أرض جزر **ساموا** في المحيط الهادئ، حيث كانت شعوب تعيش على الفطرة، خارج ما يسمى الحضارة العصرية.

وكان على ابنة الثالثة والعشرين، أن تعيش فترة بين السكان، وتسجل ملاحظاتها عن عاداتهم وتقاليدهم، خصوصاً العلاقات الإِنسانية، والعلاقة التي تربط المرأة بالرجل، على وجه التحديد.

وعندما انتهت مدة إقامتها، كانت الصبية قد استوفت دراستها، وسجلت ملاحظاتها، وحملت أوراقاً وصوراً تمكنها من تأليف كتاب. وبالفعل وضعت كتاباً كان له صدى كبير في الأوساط العلمية، وثبتت فيه إشارات مرحلة جديدة في علم الإِنسان.

اما عنوان الكتاب، الذي صدر عام ١٩٢٨، فهو «**البلوغ في جزر ساموا**». وقد **ركزت** فيه على بلوغ الفتيات، كما أجرت مقارنة بين ما تعلمته وتربت عليه في بيئتها، والجديد الذي اكتشفته بين القبائل البدائية.

* * *

وقبل أن أتابع خط مسيرتها العلمية، لا بد من لفتة إلى الوراء، لتسجيل لمحة عن حياة هذه العالمة التي جعلت «**الإنسانية متحفها**» حسب ما قال أحد زملائها.

ولدت **مرغريت** في ١٦ كانون الأول سنة ١٩٠١ في **فيلادلفيا** الأميركية. وكانت الطفل الأول في العائلة، وهذا ما جعلها تعيش حياة مميزة. ومع أنه ولد للعائلة طفل، بعدها بسنتين، إلا أن والدها (وكان أستاذ علم الاقتصاد في جامعة **بنسلفانيا**) ظل يدللها كما أن أمها (المتخصصة في العلوم الاجتماعية) أثّرتْ على أفكارها، إذ كانت تؤمن بجدية العمل في عالم يفتقر إلى العدالة، وفيه الكثير من الغبن اللاحق بالفقراء والزنوج والنساء.

وتابعت **مرغريت** تحصيلها العلمي في كلية **بارنارد** حيث درست علم الإنسان على العالم الشهير **فرانز بواس**، وبتأثيره، انتقلت إلى جامعة **كولومبيا**، حيث تابعت تخصصها في هذا الفرع.

وكان **بواس** يؤمن بضرورة الدراسة الميدانية، أي أنه كان يقول: «**لا يجوز للعالم أن يكتفي بمطالعة الكتب، بل عليه أن يخرج إلى الناس، يعيش بينهم، ويمتحن نظرياته على ضوء ما يكتشف في مسلكهم**»...

ومرغريت التي كانت صبية تتفجر طموحاً وحيوية، أصغت جيداً إلى نظريات أستاذها وآراء عالمة أخرى لا تقل عنه أهمية، إسمها: **روث بنديكت**.

وحين قررت أن تكتب أطروحة الدكتوراه، صممت على دراسة أطباع الناس المقيمين في جزر المحيط الهادئ. لكن أستاذها خشي

عليها من السفر وحدها، وهي في تلك المرحلة الزمنية، حين لم تكن المرأة تجرؤ على السفر، أو القيام بمغامرة، شبيهة بتلك التي صممت عليها الطالبة الطموح.

لكن **مرغريت** اتخذت قرارها، وانتهى الأمر. ولذا لجأت إلى والدها، وطلبت منه أن يقنع أستاذها ليسمح لها بالسفر، وهكذا استطاعت، بتصميمها العنيد، أن تكسب رضى إثنين من كبار العلماء، وتحقق فكرتها لتقوم بالرحلة - وذلك عام ١٩٢٥ .

* * *

الصبية في الثالثة والعشرين من عمرها، منعتقة للتو من زواج غير موفق دام سنتين فقط. وكان الزوج رفيق طفولتها **لوثر كروسمان**.

إذاً، كانت الرحلة فرصة جديدة لتضع **مرغريت** قدمها فوق أرض جديدة، وتتلمس طريقها وتتعرّف إلى حضارة لا علاقة لها بالعالم الذي عرفته. وقد تنقلت بين الجزر الصغيرة، تدرس أطباع السكان، وتراقب مسلكهم. وفي بادئ الأمر كانت تقيم في فندق صغير، ثم لم تلبث أن انتقلت لتعيش في كنف عائلة أميركية. وكان برنامجها اليومي يدفعها إلى الخروج والتنقل بين الوحدات السكنية، لتجري مقابلات، وتسجل أجوبة عن أسئلتها الكثيرة، وقد اهتمت بصورة خاصة، بالفتيات في سن المراهقة. ولكي تتفاهم مع السكان، درست لغتهم، وأقامت معهم صداقات طيبة، دام بعضها حتى تاريخ وفاتها.

* * *

حين شعرت **مرغريت** بأنها استوفت المعلومات، وبات لديها ما يكفيها لتؤلف عملاً مكتملاً، رجعت إلى **نيويورك**، حيث شغلت

وظيفة في «**متحف التاريخ الطبيعي**» وبقيت مرتبطة بهذا المتحف، ساعية إلى تطويره طوال سني حياتها.

وحالما استقر بها الأمر، بدأت تكتب تقريرها عن الرحلة - المغامرة. واعتبر عملها هذا، نقطة تحول، لا في حياتها وحسب، بل وفي مجرى العلم الذي اختارته.

وعظمة المرأة أنها لم تتوقف عند الدراسة العلمية الجافة، بل ان الإنسان كان ينبض فوق صفحات الرسالة. فهي أحبت هذا الإنسان، برغم كونها غريبة عن حضارته وعن جذوره، وكتبت بأسلوب يكاد يكون روائياً، مما جعل الكتاب ينتشر بسرعة، ويضرب رقماً قياسياً في المبيع، ويضع اسم مؤلفته، على رأس قائمة الشهرة، ومنذ بدء الطريق.

وقد نال إعجاب النقاد والقراء والعلماء، خصوصاً وأن المؤلفة لم توفر الصراحة والوضوح، كما لم تحاول أن تخفي أية معلومات، توصلت إليها، أو اختبرتها عن كثب.

أما الجديد الذي جاءت به، فهو اهتمامها بالشباب، وبالأطفال. وكان العلماء قبلها، يركزون على دراسة الكبار والبالغين، ولا يعطون اهتماماً يذكر للمرحلة الأولى من النمو، ثم لما يتبعها من سن المراهقة والبلوغ. واهتمام **مرغريت** بالأسلوب التربوي أعاد التركيز على هذا الموضوع الحيوي، إذ إن الأصول الإنسانية والحضارية تبدأ من جذور الطفولة - من النواة الأولى. وظلت هذه نظريتها في دراسات تالية لها، لا تقل أهمية عن العمل الأول.

* * *

كتاب «**البلوغ...**» لم يكن عميق التأثير في مجرى الدراسات

الإنسانية وحسب، بل ترك بصماته فوق تململ الحياة الأميركية، فراحت أفكار العالمة تنتشر عبر محاضرات ومقالات لها في الصحف والمجلات، حتى لكأنها بدأت تياراً جديداً، ونسقاً مختلفاً في العيش لم يكن يخطر في بال شعبها. كذلك رفعها كتابها الناجح إلى ذروة الجدارة والتقدير، وجعلها شخصاً مؤثراً في النمو الفكري في بلادها، ولمدة نصف قرن على الأقل.

لقد دعت الأميركيين إلى الاستفادة من عادات الشعوب البدائية. ولقيت دعوتها كل ترحيب، خصوصاً وأن مجتمع العشرينات، كان يبحث له عن مخرج من طغيان الظل **الفكتوري**، (نسبة إلى الملكة **فكتوريا**). وهكذا كان لها نصيب وافر في الحث على الانعتاق الذي بدأ في العشرينات، ثم تركز في الثلاثينات، وقلب وغيّر مفاهيم كثيرة في المجتمع الأميركي، ومنه، انتقل التأثر إلى المجتمع العالمي.

* * *

لكن العالمة لم تتوقف عند كتاب واحد، أو دراسة محددة. فلدى عودتها من **ساموا** عام ١٩٢٦ التقت فوق ظهر الباخرة التي نقلتها، شاباً متخصصاً في علم النفس، إسمه **ريو فورتشون** وكان هو عائداً من **نيوزيلاندة**. ومنذ اللقاء الأول، استطاع الشاب العالم أن يبدل نظرتها إلى النهج العلمي الذي تتبعه، واقتنعت بضرورة المشاركة مع الآخرين، في الأبحاث كما في التأليف. وقد ظهر لها، فيما بعد، عدد كبير من الكتب، بالاشتراك مع مؤلفين أو علماء آخرين.

وريو، الذي أعجب بدوره لا بالعالمة فحسب، بل بالعلم الذي اختارته، انتقل هو أيضاً إلى الأبحاث «**الأنتروبولوجية**» كما اتفق مع

مرغريت على الزواج، فالسفر إلى **غينيا الجديدة** حيث اشتركا في دراسة ميدانية على السكان هناك، وكانت ثمرة هذه المشاركة كتابها التالي «**النمو في غينيا الجديدة**». والذي لا يقل أهمية عن كتابها الأول، بل انها اندفعت فيه خطوة أبعد بتأثير العالم النفسي زوجها. فقد بدا، في الدراسة الجديدة، اهتمام خاص بالمنحى النفسي عند الشعوب البدائية. وملاحظاتها الجديدة سجلت أن عقول البالغين في الحضارات البدئية، أشبه بعقول الأولاد، في البيئات المتحضرة. لكنها لم تهمل دراسة المراهقين والأطفال، لتقيس مدى نموهم العقلي، من خلال مسلكهم.

أنفقت ستة أشهر في هذه الدراسة. وعندما همت بمغادرة الجزيرة برفقة زوجها، دق السكان طبول الفراق، التي تدق، عادة، لدى موت كبير أو عزيز قوم. وهذا يدل على العلاقة الطيبة التي كانت تحرص على إقامتها، حيثما حلت، وبفضلها تنال ثقة السكان الذين كانت تدعوهم «**شعبي**».

* * *

من فكرة جديدة إلى أخرى، كانت العالمة تنتقل. ومع كل خطوة تثير الضجيج والاعجاب. فقد درست وقارنت بين الأساليب التربوية التي تمارسها الأمهات في شتى البيئات. وهذا ما لم يسبقها إليه أحد من زملائها في هذا الحقل. ثم أنشأت مدرسة «**الحضارة والشخصية**» ومهمتها دراسة التأثير الحضاري على تطوير الشخصية الفردية. وكانت أول من استخدم المسجلات وأفلام الفيديو، لتسجيل العادات السائرة في طريق الاندثار، وحفظها كمرجع للأجيال اللاحقة.

وكانت، لدى كل خطوة، تواجه المعارضين، الذين ينتفضون لدى اهتزاز القواعد الثابتة. كما أن زملاءها العلماء كانوا يأخذون عليها سهولة الأسلوب، وهو صلة الوصل التي قربتها من الناس، وساعدتها على تبسيط الأفكار، وغرسها في تربة خصبة.

* * *

وبقيت للعالمة، مكانة خاصة عند الشباب، إذ وقفت دائماً إلى جانبهم في وجه الأفكار المتحجرة، بل اعطتهم حقوقاً كانت تحدث، في كل مرة، صدمات اجتماعية.

ومن نظرياتها المهمة، اعتقادها أن حضارات العالم تسير وتتطور لتبلغ مرحلة يحق فيها للشباب أن يبدوا رأيهم، ويقولوا كلمتهم اسوة بالكبار. وربما مضت في السماح أكثر من ذلك حين قالت، مرة تلو المرة، بأن للشباب كل الحق في تقرير مصيرهم، لأن التربية التي نشأ عليها أهلهم تظل مقصرة عن بلوغ عتبة المستقبل.

وخلال المرحلة الممتدة من بدء الستينات، حتى أواخر السبعينات، كانت **مرغريت** تنتقل من جامعة إلى أخرى، تحاضر، وتقدم النصائح والارشادات، وتطرح أفكارها المستقبلية، والتي وجدت أطيب الاصداء في نفوس الشباب، خصوصاً وأنها كانت تحثهم على صنع مستقبلهم بأنفسهم.

* * *

لقد انشغلت العالمة بالتأليف والمحاضرات. إلا أن ذلك لم يستغرق وقتها كله، بل كرست جزءاً كبيراً من نشاطها واهتمامها لتقديم البرامج التلفزيونية والاذاعية، حول موضوع اختصاصها، بالطبع.

وتحدثت للناس عن قضايا تهمهم،و تهمها كعالمة شمولية النظرة، مستقبلية التطلعات. ومن المواضيع التي خاضت فيها، وطرحتها آملة في البحث عن حل: **الجوع، التلوث، الصحة العقلية، الحركة النسائية، عادات القبائل البدائية، التخطيط المدني، ضبط السكان، تربية الأطفال، والفنون**.. إلى ما هنالك من قضايا حضارية ومعيشية هامة.

كذلك رصدت جزءاً كبيراً لدعم المؤسسة التي أنشأتها لدراسة الحضارات المنوعة. وقد بلغ ريع سنة واحدة أربعين ألف دولار، وذلك قبل وفاة العالمة بأشهر قليلة.

واستكمالاً لسيرتها، لا بد من ذكر زواجها الثالث بزميل آخر، هو العالم **غريغوري بيتسون**، ولها منه إبنة وحيدة إسمها **ماري كاترين**.

مهم أن نتوقف هنا، مع ملاحظة للعالمة، حول علاقة الجدات بالأحفاد. فعندما وضعت **ماري طفلتها سيفان مرغريت كسارجيان** عام ١٩٦٩ كتبت الجدة **مرغريت** مقالاً، قالت فيه: «**من دون أي تدخل مني صرت متصلة عضوياً بإنسان جديد...**».

وقالت في مكان آخر: «**ان الأجداد يحتاجون الى الحفداء ليظل العالم المتحول نابضاً بالحياة... كما أن الحفداء يحتاجون الى الأجداد ليساعدوهم على معرفة أصلهم، ويمنحوهم شعوراً بالتجربة الإنسانية في عالم قديم لا يعلمون عنه شيئاً**».

* * *

والمرأة التي قضت عمرها في ملاحقة العلم، والاهتمام بمصير الإنسان بدائياً كان، أم متحضراً.. والعالمة التي شغلت الأوساط

الثقافية في بلادها طوال نصف قرن من الزمن، إن بمؤلفاتها (وقد زاد عددها على العشرين كتاباً) أو بدراساتها ونظرياتها المتفجرة تحدياً وحداثة... تلك المرأة، كان لا بد لها أن ترضخ للتعب والمرض. ففي شهر تشرين الأول من العام ١٩٧٨ نقلت **مرغريت** إلى أحد مستشفيات **نيويورك**، حيث خضعت لعلاج مكثف من دون أية فائدة. كذلك لم تفدها مداواة امرأة حضرت خصيصاً من **التشيلي** لتدلك بأناملها الشافية موضع الألم. وقد أثار حضور هذه المرأة زملاء العالمة، الذين لم يصدقوا، كيف ترضخ سيدة العلم، والمسيطرة على قطاع واسع من علوم القرن العشرين، كيف ترضخ لأنامل مشعوذة؟.

* * *

لكن، ماذا يعرف العلماء عن الظواهر الخفية في الكون، وفي باطن الإنسان؟ ماذا يعرفون عن الأسرار البدائية، التي قضت زميلتهم حياتها في محاولات تقصيها والتحقيق فيها؟..

وفي الخامس عشر من شهر تشرين الثاني، وفيما كانت «**الروزنامة العالمية**» تطلق على **مرغريت** لقب: **واحدة من بين ٢٥ امرأة عظيمة من القرن العشرين**... في اليوم نفسه، وبعد انقضاء شهر واحد على مرضها، توفيت العالمة، تاركة الساحة لعالم جديد، اسمه **ديريك فريمان**، انتظر فرصة وفاتها، لينشر كتاباً حاول فيه أن ينقض أفكاراً طرحتها في باكورة إنتاجها «**البلوغ في جزر ساموا**» **وعنوان الكتاب «مرغريت ميدّ وجزر ساموا»**.

والسؤال: لماذا انتظر **ديريك** وفاة زميلته، لينشر كتابه؟ ولماذا قضى أربعين سنة في إعداد عدة الهجوم؟ هل هو توق إلى الشهرة السهلة،

تأتيه على منكبي اسم علم؟.. أم هو العلم، يحاول أن يتجاوز نفسه أبداً؟ أم أنه يتحدى في عمله هذا، المرأة التي لم تخش مرة خوض المعارك الفكرية؟.

الأجوبة يقررها المستقبل، بينما ترقد العالمة مرتاحة إلى حياة ملأى بالثمار والإنتاج والبناء، يرافقها إلى مثواها الأخير قول لها شهير:

«عاجلاً أم آجلاً سوف أرحل.. لكن لا تظنوا مطلقاً أني أستقيل».

- مجلة العلوم ٨٣ - عدد نيسان ١٩٨٣ .
- مذكرات ميد - تأليف العالمة.
- مجلة الكتاب الأحمر - رأي عالمة - ١٩٧٠ .

بيريل ماركام

«إنك تطير، ولا تعود الأرض كوكبك».

«عرفتها جيداً في أفريقيا.. ولم يخامرني أي شك في انها لا تستخدم القلم إلا لتسجيل ملاحظاتها في سجل الطائرة... لكنها هنا، تكتب بإتقان وجمالية جعلتني أخجل من نفسي ككاتب، وأشعر بأني لست أكثر من نجار كلمات، أتناول منها ما أحتاج إليه، ثم أجمعها بواسطة المسامير، وأحياناً أذيلها بتوقيع فظ. أما هي، ففي امكانها أن تكتب دوائر حولنا جميعاً، نحن الذين نعتبر أنفسنا كتّاباً...».

هذا المقطع، هو جزء من رسالة، بعث بها الروائي الأميركي الشهير «**أرنست همنغواي**» إلى زميله الكاتب «**ماكولم كولي**» على إثر صدور كتاب «**بيريل ماركام**» «**غرباً مع الليل**» أول مرة عام ١٩٤٢، وبعد عامين اعيد طبع هذا الكتاب بموافقة المؤلفة، وعاد الناس يتحدثون عن المغامرة الجريئة، لا في مجال الكلمات وحسب، بل وفي المجال الفضائي...

إن **بيريل** رائدة طيران، من عصرنا. بدأت مغامراتها الأولى في الحياة والتحليق الجوي، في القارة الأفريقية، التي أحبتها، وسجلت حبها لها لا في «**سجل الطائرة**» بل في كتاب شاعري الأسلوب، ينبض بالحرارة والحياة، مثلما تنبض المخلوقات العجيبة في قارة الذهب والأبنوس.

* * *

«**أتحدث عن أفريقيا والأفراح الذهبية**»، هكذا تقدم **بيريل** لقصتها مع الطيران، ومع القارة الساحرة. وتهدي الكتاب إلى والدها..

في الواقع، لا تذكر رائدة الطيران أحداً من أفراد أسرتها سوى هذا الأب البريطاني، الذي نشأ في مدينة «**ساندهورست**»، ودرس في أرقى الجامعات، حتى بات ضليعاً في اللغتين: اليونانية واللاتينية، وترجم بواسطتهما **أوفيد وأخيل**، وحصد جميع الجوائز المرصودة لهذا الموضوع.

لكن الأب، إلى جانب شغفه الأدبي، كان يهوى ركوب الخيل، والمغامرة. وهذا ما دفعه إلى مغادرة انكلترا عام ١٩٠٦ حاملاً ابنته **بيريل**، المولودة في العام ١٩٠٢، إلى مناطق مجهولة من شرق **أفريقيا**. وهناك راح يحول الأدغال إلى مزارع، تتسع لطموحه، ولأبعاد مغامراته... أما لماذا اختار **أفريقيا**، فلأنها، حسب وصف ابنته:

«**جديدة، تحس وأنت، تلامس أرضها، بأن المستقبل يتململ تحت قدميك**». وفي المزرعة انصرف الأب إلى تربية الخيل الأصيلة، وتدريبها، وترك الطفلة تعيش مثل «**طرازانة**» صغيرة، مع أطفال قبيلة «**ناندي موراني**». لم تعرف ألعاباً سوى تلك الألعاب التي يمارسها أطفال القبيلة. باكراً جداً تعلمت القفز، وصارت تقفز اعلى من قامتها. ثم راحت تتمرن على المصارعة، والمبارزة، والصيد.

«**لا يمكنك أن تعيش في أفريقيا، ولا تتعلم الصيد**». وكان «أستاذها» أحد صبيان القبيلة. علمها كيف تستخدم القوس النشاب، وكيف تبري الأسهم. وبدأت تصطاد الطيور الصغيرة، والحيوانات

الزاحفة، ثم تدرجت، وصارت تخترق الغاب، حافية القدمين، حاسرة الرأس، غير مبالية بالحيوانات المفترسة أو المعابر المجهولة.

* * *

وتكتب في روايتها الرائعة: «**إقتحمنا الغابة، فوجدنا صياداً من قبيلة «واندوروبو» كان صغير الحجم مثل ولد. رجونا منه أن يعيرنا شيئاً من السم لرؤوس أسهمنا فرفض، لأننا كنا، في نظره، أطفالاً**».

ومن أولاد **ناندي موراني**، تعلمت كيف ترقص رقصات القبيلة، وتقف بين «**الفتيات الحليقات الرؤوس، والرجال الذين يتركون شعرهم يتدلى ضفائر حتى يلامس الكتفين**». ومنهم تعلمت الغناء ذا النغم الخاص بأفريقيا وحدها.

يندر أن تعيش طفلة، من خارج المحيط القبلي، الحياة التي عاشتها الفتاة الشقراء، ذات العينين الزرقاوين. كما يستحيل على طفلة أن تنمو النمو الطبيعي، بعيدة عن حضن الأم، بعيدة عن ارض الوطن... لكن الفتاة وجدت في إحدى السيدات المقيمات في تلك المنطقة، (وهي زوجة **اللورد دولامير**) وجدت فيها أماً جديدة.

كما انفتحت لها القارة اللاهثة حرارة وسحراً، وراحت تشدها إلى صدرها، وتعلمها أساليبها وطرقها... «**إن جسمي مطرز بالوشم، آثار الطفولة العنيفة التي عشتها.. بين تلك الآثار، طعنة سيف في أحد الساقين، ونهشة عميقة من أنياب أسد غاضب...**».

ومع ذلك ظلت **أفريقيا** في حياتها: الساحرة ذات ملايين الوجوه العجيبة.. فهي للكاتب كل الأشياء دفعة واحدة، تماماً مثلما هي

للقارئ.. وهي للفنان ذات الصور المشعة بألف لون. و... «**قد تكون نهاية لعالم قديم، أو مهداً لعالم يولد... أما بالنسبة إليّ فهي بيتي وحبي الأول**».

* * *

بالطبع، لم تكن **بيريل** تقضي وقتها كله في مطاردة حيوانات الغاب، بل تعلمت باكراً كيف تساعد والدها، وتخفف عنه وحدته. أخذت عنه فن تدريب الخيول، وأتقنته وهي بعد مراهقة. كما وضع والدها بين يديها الكتب الضرورية لنموها الفكري، إلى جانب النمو الجسدي، فراحت تقرأ بنهم. لكن الطبيعة ظلت كتابها المفضل، وإلا فكيف يمكن أن يتوفر لها التوغل في أسرار أفريقيا وفهم رموزها؟... بل وفهم سكان غاباتها وأدغالها فهماً عميقاً، ومحباً، جعلها ترسم خريطة الأدغال وسكانها، بالكلمات الصافية النابضة بالحياة، حتى ليشعر قارئ كتابها الفريد الأسلوب، بأن المرأة وصلت إلى نوع من الاتحاد بكل ما يحيط بها من مخلوقات. وقد نشأ في نفسها فهم خاص لأسياد الغابات. فهي حين تصف الأسد، أو الفيل، أو الفهْد، تجعل القارئ يحس بأن الكلمات تزأر أو تسخر، أو تخترق عينيه كالأسهم المبرية.

لكن خطاً آخر، من خطوط القدر، كان ينتظرها... في يوم، وبينما هي خارجة إلى الغاب، على ظهر حصانها، التقت شاباً أبيض في بعض الطريق، وهذا أمر نادر جداً، لأن عدد البيض، في تلك المنطقة، كان يحصى على أصابع اليد.

كان الشاب إنكليزياً مثلها، وقد تعطلت سيارته، فتوقف كي

يصلحها، ومن الطبيعي أن يدور بينهما حديث تعارف تطور إلى مقارنة بين وسيلة النقل التي يعتمدها، ووسيلتها الطبيعية. لكن الشاب، الذي يدعى «**طوم بلاك**»، لم يكن يتكلم عن وسائل النقل الأرضي، بل كان طموحه يشده إلى فوق، إلى الفضاء... إذ كان يعد نفسه ليصبح طياراً، وقد حقق حلمه، وبلغ أوج شهرته في الثلاثينات.

راح طوم يحدثها عن الطائرة وكأنها كائن حي: «**عندما تحلقين في الفضاء كل الأشياء تصبح ملكاً لك.. الأجزاء تترابط وتبصرين الكل.. وهذا ملك لك...**».

أصغت إليه، برغم انحيازها إلى الخيل. ورأت فيه الإنسان الحالم، إنما ظلت بعيدة عن الموضوع. لكن اللقاء تكرر، وراح **طوم** يحبب إليها مهنة الطيران، حتى أقنعها بالتالي، لتتخلى عن تدريب الخيل، وتنتقل إلى ارتياد الفضاء. وكان هو أستاذها ومدربها. منه تعلمت الأصول، فلسفة الطيران، فهم الآلة، إذ كان عليها أن تهتم، لا بقيادة الطائرة وحسب، بل وبفهم الميكانيك، وإصلاح الأعطال، فالطائرة كانت ملكها، أي مسؤوليتها الأهم.

لم يمض وقت طويل، قبل أن تتقن الطالبة الذكية هذا الفن، وتكتشف في نفسها، شغفاً غير عادي، بفن التحليق، والهبوط. ولما أصبحت واثقة بنفسها، راحت تنتقل بين شتى المدن الأفريقية، لتنقل الركاب في حالات الطوارئ. لكن عملها الأول كان نقل البريد، ووصل الزوايا البعيدة من القارة الشاسعة: وكانت رحلتها تقودها من **تانغانيكا** إلى **السودان، وكينيا وروديسيا وليبيا ومصر**.

مارست تدريبها الأول في مطار **نيروبي**: «**كنت، وأنا أجري**

دورات تدريبي على الطيران، أشعر بأن كيمياء عجيبة تحول حياتي وعالمي إلى حبات صغيرة في فنجان...».

وفي مكان آخر تكتب عن تجربتها فتقول: «**أقلعت من مطار نيروبي ألف مرة. وفي كل مرة كنت اعيش حماسة المغامرة الجديدة**».

وتروي أن أول رحلة قامت بها منفردة إلى **نانغوي** لتحضر قارورة أوكسجين من أجل رجل مريض.

كانت البرقية تستغرق يومين كي تصل. والطائرة أسرع وسائل الانتقال... طائرتها هي. والرجل من أصحاب مناجم الذهب.

وفي تلك الآونة، كان ربان الطائرة يعتمد على مقدرته، وإرادة اللّه، إذ لم تكن الطائرة مزودة باللاسلكي، أو بخرائط ترشده إلى الطريق الفضائي، وتشير إلى مطارات الاقلاع أو الهبوط. كان على الربان أن يكتشف بنفسه المطار الذي ينوي الهبوط فيه.

وأقلعت **بيريل** في الظلام، وحين بلغت مطار **نانغوي** عرفته من الأنوار الخافتة المحيطة بالمكان، وهي أنوار تنبعث من مصابيح الزيت، فالكهرباء لم تكن قد بلغت المكان. وهذا ما جعلها تصف تلك الرحلات بأنها مغامرات لا مثيل لها في التاريخ، «**فأنت تطير، ولا تعود الأرض كوكبك، بل واحداً من مجموعة كواكب بعيدة. وتطير وحدك في الظلام، وصمت الفضاء...**».

وتروي **بيريل** مغامرة أخرى من مغامراتها الأفريقية غير العادية. فقد كان هناك طيار اسمه **وودي** يعمل على خط آخر من الخطوط الأفريقية، ومثلها هو، مالك طائرته، مهندسها وولي أمرها. وفي يوم،

فقد **وودي** وانقطعت أخباره، ولم يكن هناك من وسيلة للبحث عنه، سوى طائرتها: أقلعت فيها من دون أن تعلم أحداً، وراحت تدور وتلف فوق الأدغال، والغابات والصحارى، حتى كادت تقطع الأمل من العثور عليه، وبينما كانت تهم بالعودة، لمحت جسماً غريباً فوق سطح الرمال الصحراوية، كان أشبه بجسم طائر حزين.

دارت فوق المكان بضع دورات، حتى تأكد لها أن هذا الجسم ليس سوى طائرة **وودي**. وبسرعة، فكرت في الخطوة التالية: الهبوط في مكان صالح من دون أن تعرض الطائرة للتحطيم. وهذا ما فعلته، ونجحت، وهرعت إلى مكان الطائرة فوجدتها سليمة، إنما لا أثر للربان. وخشيت أن يكون صاحبها اقترف غلطة التيهان في الصحراء، حيث يموت من الجوع والظمأ بعد ان يكون قد نجا من الهبوط القسري..

وراحت تتجول في الزوايا الأربع المحيطة بالطائرة إلى أن لمحته، معلقاً بين صخرتين، أشبه بجثة منه بإنسان حي. إقتربت منه، حاملة قربة الماء، وسيلة الانقاذ في مثل تلك الحالة. ولما نادته، لاحظت أنه ما زال يتحرك، ثم راح يتمتم كلمات غير مفهومة، وكانت تعلم أن هذا تصرف الإنسان ضحية الظمأ... فأخذت تسكب الماء في فمه، حتى بدأ ينتعش، ثم نقلته إلى طائرتها، وأقلعت به إلى أقرب مستشفى. وأنقذ زميلها، وعاش من بعد تلك التجربة حياة طبيعية، بل إنه عاد يمارس عمله الطبيعي: الطيران.

* * *

وأروع ما ترويه **بيريل** من ذكرياتها عن تلك الأيام الأولى في

أفريقيا، هو المغامرات الخطرة التي عاشتها، وقد ورثتها، بلا شك، عن مثالها الأول، والدها. وإذا كانت لها الشجاعة لتطوف الفضاء الأفريقي وحدها في طائرتها الأولى، فإنها ظلّتْ في حاجة إلى أكثر من الشجاعة لتواجه واقع عملها، خصوصاً حين كانت تقود رحلات الصيد **(السافاري)**.

وكان الصيادون من البيض الأثرياء، الذين يقصدون تلك المناطق المجهولة، لصيد الفيلة، أو الأسود وسواها من الوحوش المخيفة. وكثيراً ما كانت تجد نفسها، وسط قفر، محاطة بعائلة من الأسود... ولها وصف دقيق، لذيذ،للمواجهة التي حصلت عدة مرات، بينها، وبين الأسد، أو أحد أفراد قبيلته. كما تصف بمحبة وحنان، كل واحد من الحيوانات، وكأنها خبيرة في أسلوب عيشها، ومسلكها. ولا غرابة في ذلك، إذ إن ما يتعلمه المرء في طفولته، يبقى ذخراً، ويبقى كنزاً.

ومثلما تعلمت من تجربة الطيران المنفرد، أن تفهم الرموز الفضائية، حتى في الصمت والظلام، كذلك علمتها تلك الرحلات المغامرة، كيف تعيش أياماً، وحدها في غابة مجهولة، والصيادون يطاردون الحيوانات والطيور.. إذ كان عليها أن تنتظر رجوعهم، لتقلع بهم في طريق العودة. وإذا فكرنا في الفترة الزمنية التي عاشت فيها **بيريل** تلك المغامرات، نكاد لا نصدّق. فهي لم تكن المرأة الوحيدة التي اختارت الفضاء مجال الصراع والتحدي، بل ان الطيران في العالم كله، كان، في مطلع الثلاثينات، الجديد الذي يثير الحماسة والعجب.

في تلك الأثناء، كان والدها (الذي أنشأ أول مطحنة آلية لطحن الذرة، وأول منشار كهربائي لقطع الخشب، وبناء البيوت الحديثة) كان هذا الأب يمر في انتكاسة لم يستطع النهوض منها، إذْ كان يلتزم

من الحكومة المحاصيل من حبوب الذرة بسعر معين، ويبيعه طحيناً، محصلاً بعض الأرباح. وجاءته سنة قحط، والقحط الأفريقي ماحق... فقد جفت الأراضي، وحتى الأشجار لم تستطع المقاومة: وهكذا احترق محصول الذرة لذلك العام، وكان عليه أن يقوم بمستلزمات العقد، ويبيع الطحين بسعر أدنى من سعر الشراء أضعاف المرات، مما اضطره إلى بيع الخيول، والمزرعة، والبيت، كي يفي ديونه. وبعد هذه النكسة سافر إلى **البيرو**، في **أميركا** الجنوبية. أما **بيريل** فبقيت تمارس عملها. ومن الطيران، جمعت مالاً يكفيها لشراء مزرعة صغيرة ظلت ملاذها وحماها، والحضن الذي يستقبلها كلما عادت من رحلة فضائية.

* * *

ومثلما تنتهي الأحلام، انتهت إقامة رائدة الطيران، في **أفريقيا**، بعدما عاشت العديد من المغامرات، وقطعت ألوف الأميال، راسمة خيالها على صفحة الفضاء. ولم يكن الوداع بارداً. كانت **بيريل** تعرف أنها تترك خلفها طفولتها وصور الأيام الحلوة. ولكن **أفريقيا** الأولى التي عرفتها، لم تلبث أن بدأت تتحول، وتدخل في تغيرات العصر. وتصف وداعها باسلوب مؤثر: «**كانت طريقي إلى انكلترا تمر بالخرطوم، وادي حلفا، الأقصر، القاهرة، بنغازي (المدينة الصغيرة ذات الروح التي لا تموت) ثم طبرق وطرابلس.**» وقد كتبت في مذكراتها:

«**حين أقلعت من مطار تونس، كان عليّ أن أدور مرة، أو مرتين، وأخفض جناحي بالتحية، لأني كنت أعرف، أن أفريقيا ستبقى**

هناك، إنما سوف تكون غير أفريقيا المطبوعة في الذاكرة، لا لأن معالمها ستتغير بل لأنها قارة مزاجية، ولمزاجها عدة ألوان...».

* * *

يبقى الأهم والأجرأ في حياة **بيريل**، وهو قيامها برحلتها الشهيرة في شهر أيلول من العام ١٩٣٦، مقلعة من الشاطئ الغربي في **انكلترا**، ومتجهة إلى «**الأرض الجديدة**» شمال **كندا**.

لماذا المغامرة، وهي ليست بحاجة لإثبات وجودها؟.. فقد بلغت المسافات التي اجتازتها ربع مليون ميل.. ولما تعبت طائرتها الأولى ابتاعت واحدة جديدة سمتها «**الفهد**». ولم تكن في حاجة إلى المزيد من الشهرة. فلماذا قبلت القيام برحلة ربما تكلفها حياتها؟...

نعود إلى مذكراتها فنقرأ بعض ما كتبته عن الرحلة... إن فكرة اجتياز الأطلسي ولدت في مأدبة عشاء عند آل **كاربيري**. وكان هناك رجل يدعى **ماكاري** أنفق شطراً من عمره في **أفريقيا**. هذا الرجل طرح أول كلمات التحدي، حين سأل **جون كاربيري** الثرية: «**لماذا لا تمولون رحلة طيران عبر الأطلسي، تقوم بها بيريل وتسجل أول علامة للمرأة في هذا المجال؟**»...

والتفتت **جون** إلى **بيريل** وقالت: «**لم يسبق أن قام أحد الطيارين بمفرده بهذه الرحلة، فهل أنت مستعدة لذلك؟**»

فاجابت **بيريل**: «**نعم**».

وتبرعت عائلة **كاربيري** بتمويل الرحلة، بما في ذلك صنع طائرة خصيصاً لهذه الغاية. ووقفت المرأة في وجه التحدي بكثير من الجرأة والثقة بالنفس. وكان جوابها عن سؤال الآخرين بسيطاً ومختصراً:

«**كل واحد مع طبعه. البحّار يعرف ان عليه أن يبحر. والطيار يعرف أنه بطبعه يطير. هناك فضاء. وهناك طائرة، ومهنة اجتهدت في إتقانها. فقد اعتادت يداي على التوجه إلى مركز القيادة مثلما تعتاد يدا الاسكافي حمل المطرقة. فالمرء لا يبلغ الإِباء إلا عن طريق العمل**»... وفي لحظات الشك، كانت تقول لنفسها: «**لست في حاجة إلى هذه المغامرة...**» لكنها، ظلت في اعماقها، تعي أن ما من وعد أقوى من وعد المرء لكبرياء ذاته.

وقد شهدت ولادة طائرتها، ذات الجسم الأزرق «**التوركواز**» والجناحين الفضيين، وصنعها خصيصاً لها **إدغار برسيفال** وأتقن الصنعة. وأطلقت عليها اسم «**فيغاغال**» أو «**النورس فيغا**». وأقلعت فيها، مثلما وعدت، وكان كل شيء ضدها: الهواء، والطقس، وانعدام وجود اللاسلكي. وكان عليها أن تعتمد على مهارتها، وخبرتها، ومشيئة اللّه، والطائرة اللطيفة.

لم تكن الرحلة سهلة.. ساعات من الطيران المنفرد، في الظلام والصمت، فوق مياه لا تنتهي والسماء تمطر، والعواصف تثور من صفحة الأطلسي، فتكاد تشدها إلى الأعماق.

وتوقف المحرك مرة وراحت تهبط حتى كادت تلامس صفحة الماء حين عادت إليه الحياة فجأة، ورفعها إلى الفضاء: «**ليس سهلاً أن تكون وحدك، طائراً فوق ذلك المدى من الفراغ. وعينك لا تبصر من الوجود سوى آلات القيادة.. إنه أشبه بشعورك حين تكتشف غريباً يسير إلى جانبك، في الظلام.. وهذا الغريب، يا للمصادفة هو أنت**».

مسافة ثلاثة آلاف ميل، منها ألفان فوق البحر.. هذا هو مدى الرحلة. وجهة الطيران: غرباً مع الليل. ويتلاشى الخوف، لأنها في حاجة إلى شعور آخر يجعلها تجتاز التحدي. فقد مارست «**الطيران الأعمى**» حسب تعبيرها، لمدة تسع عشرة ساعة. ونال منها التعب، لكن الأمل عاد إليها بعدما بلغت اليابسة. ومثلما أرهق جسمها، تعبت الطائرة وتمردت بسبب كثافة الجليد حول المحرك، وإذا به يتوقف، وتضطر **بيريل** إلى هبوط قسري، بل إنها تهوي، ويغرز «أنف الطائرة» في الوحول، بينما يرتطم رأس قائدتها بالزجاج، وتخرج سالمة، وإنما سابحة في دماء تسيل من جراح الرأس.. في الخارج لم تكن الأرض مضيافة، فغرقت حتى الخصر في الوحول، وكان يمكن أن تبقى مغروسة هناك لولا أحد الصيادين، وهو من خفر الساحل. أبصر الطائرة من بعيد، وسعى لإِنقاذها.

لقد حققت الرحلة، وإن لم تبلغ المطار، وتهبط فيه هبوطاً طبيعياً. وكانت قد أمضت في الطيران المتواصل إحدى وعشرين ساعة وخمساً وعشرين دقيقة. كما أنها بقيت بلا نوم مدة أربعين ساعة.

وكان أول ما فعلته، لدى بلوغها كوخ الصياد، هو الاتصال بقاعدة المطار لتوفر على المسؤولين عناء البحث عنها. وقد اعتبرت رحلتها ناجحة، بل مغامرة رائدة. ونقلت من هناك إلى **نيويورك** حيث كانت الصحافة في انتظارها. أما «**النورس**» فقد اشتراها أحد الأثرياء الهنود، ربما ليضيف إلى شهرته ووجاهته إشارة جديدة. لكنه لم يعرها اهتماماً كبيراً، ولم تلبث أن تآكلت وتحولت إلى خردة رخيصة. أما **بيريل** فتقول في ختام الرحلة: «**أعترف بأن النورس لم تخيبني..**

لكنها وقعتْ ضحية لهجمة شرسة من جليد القطب الشمالي».

- غرباء مع الليل - تاليف بيريل ماركام.

إدنا غاردنروايت

«لا.. لست طامحة الى الجلوس في الكرسي الهزّاز...»

امرأة القرون الماضية، كانت تكتفي بالمغامرة الفكرية، ان هي اعطيت الفرصة، لكي تجرب طاقاتها. لكن القرن العشرين، فتح امام المرأة، ابوابا عديدة، باتت تلجها بسهولة احيانا، وبكثير من الصعوبة والصراع، في معظم الاحيان. ذلك لأن الثقة بها، وبامكاناتها، كانت تحتاج الى البرهان، بل البراهين الحية، العملية والتي ترى بالعين المجردة، وتلمس باصابع اليدين.

* * *

وادنا غاردنر وايت لم تكتَفِ بالوقوف عند حدود المغامرة الفكرية، بل تجاوزتها كما تجاوزت زمانها لتقف، وتضع معها المرأة على اعتاب دنيا جديدة، وزمن آخر، تتلاشى فيه اسطورة ضعفها، وعجزها، وعدم مقدرتها على مجاراة الرجل في القوة الجسدية والعقلية.

ذلك انها اختارت الطيران، مهنة لها، في حين كانت المرأة في بلادها، وسواها من بلاد الله الواسعة، تلملم اذيال الثوب الطويل، وتختبئ خلف الستائر المخملية، حيث تحلم، وتربي الاولاد، وتهتم بشؤون العالم الداخلي... اي البيت.

* * *

ولدت ادنا في **غاردن سيتي**، من ولاية **مينيسوتا** الاميركية، عام

١٩٠٢، وكانت واحدة من ثلاثة اولاد في اسرة **والتر وميرتيل غاردنر**. حين بلغت عامها الثامن، واجهت صدمة قوية، اذ فقدت والدها، في حادث قطار. واضطرت امها، وهي معلمة، الى أن تنصرف الى العمل، كي تعيل الاولاد الثلاثة، وتؤمّن لهم التربية الصالحة والعيش الكريم.

في اثناء غياب الام،كانت **ادنا** ترعى الاخ الصغير **دونوفان**، الذي لم يجاوز عامه السادس، والشقيقة الاصغر منه، **فيرا**، ابنة السنتين.

مسؤولية كبرى، رست فوق كتفي الطفلة، في حين كان الاولاد، في مثل سنها، ينصرفون الى اللهو والمرح والاستمتاع بالحياة والطفولة.

لكن التعاسة لم تتوقف عند هذا الحد: فقبل انقضاء ثلاث سنوات على غياب الاب، مرضت الام، سند العائلة، بداء التدرن الرئوي، مما استوجب إدخالها المصح، والبقاء فيه حتى الشفاء التام. وهذا ما جعل بعض الاقارب، يشفقون على الاطفال، ويأخذونهم كي يعيشوا في منزلهم، ويتربوا مثلما يتربى اولادهم.

* * *

تابعت **ادنا** دراستها الابتدائية فالمتوسطة والثانوية، ثم دخلت معهدا للتمريض. وفي عام ١٩٢٤ تخرجت حاملة شهادة تؤهلها للعمل في هذا الحقل الانساني. وتذكر من تلك المرحلة انها ذهبت لتعمل في احد مستشفيات **سياتيل بواشنطن**، وهنا بدأت فكرة الطيران؛ فقد سألها احد المرضى عما اذا كانت تحب الطيران، فقالت:

– نعم، واحب الطائرات ايضا.

مع العلم انها لم تكن قد ابصرت للطائرة شكلا. وحين شفي المريض، دعاها كي تقوم معه بنزهة في طائرته. وكانت تلك نقطة الانعطاف في حياتها...

قبل الاقلاع، راح يعلمها تقنية الطيران، وكيف تعمل تلك «**العكازة**» للارتفاع بالطائرة، او الهبوط بها، او الانسياب في التحليق.

كانت تراقبه، بذهول ودهشة، وتتساءل في الوقت ذاته:

- **أتراني استطيع ان اقود الطائرة مثلما يفعل هو؟**

وفي اثناء التحليق، اكتشفت الجواب عن ذلك السؤال، حين سمح لها رفيقها بأن تجلس في كرسي القيادة، وتأخذ زمام الامور، وتبني ثقة في نفسها، لم تنته مع لحظات الهبوط بل بقيت تتفاعل في ذاتها، وفكرها، وتدفعها الى التفكير الجدي في التدرب على فن الطيران.

* * *

تذكر من تلك الرحلة الاولى انها لشدة اعجابها بالطيار، رفيق الرحلة، حسبته اعظم من قاد طائرة؛ وبقيت هذه فكرتها حتى لحظة الهبوط، حين ارتطمت الطائرة الصغيرة بالارض، ثم قفزت، كالكرة، وراحت تدور على ذاتها. بالطبع، لم يكن ذلك الهبوط المثالي؛ ولكي يبرر رفيقها ضعفه، اعترف بأنه حديث في هذا الفن... وتجربته لا تتجاوز ثماني ساعات من الطيران.

وقد زادها الاعتراف شغفا بالموضوع، وراحت تبحث عن معهد تتعلم فيه الطيران. وباتت تغتنم كل ساعة فراغ، لتدرس بجد هذا الفن المدهش. لقد رفعتها التجربة الاولى الى مجال مثير للخيال

والفكر معا، وباتت تنظر الى الفضاء الرحب، على انه مداها الجديد.

* * *

عام ۱۹۲۷ قامت **ادنا** بأول طيران منفرد، وحصلت على اجازتها الطلابية في العام نفسه. لكن ذلك لم يكن كافيا لتصبح **«طيارة»** محترفة، فهناك تجارب، ومراحل عملية عليها ان تجتازها، وبكثير من الصعوبة والعناد. وفي العام ۱۹۲۹ حصلت على اجازة تخولها قيادة طائرة خاصة، ولذلك خلفيات ترويها بنفسها فتقول: **«كان وقتا عسيرا، وكان الفاحص متشددا معي. وقد اعطاني اولا الامتحان الكتابي. وبعد مرور ساعة على انتهاء هذا الامتحان، كنت لا ازال جالسة في مكاني، بانتظار امتحان الطيران. وتركني انتظر حتى فرغ صبري فسألته:**

- هل سقطت في الكتابة؟

فكان جوابه لي سؤالا:

- لماذا تحاولين الحصول على اجازة طيار؟..

قلت:

-**«اني اطمح الى امتهان الطيران»**... بعدها قادها الفاحص، لتقوم بالامتحان العملي، وهو في حالة سلبية تامة... لكنها نجحت في الامتحان الثاني... واسقط في يده. غير انه لم يتراجع عن موقفه منها، كامرأة. وما كادت تواجهه بعد الهبوط، حتى انفجر بالصراخ:

- لم يسبق لي ان وقعت على شهادة تخول المرأة قيادة طائرة... ولست مستعدا لأن ابدأ ذلك الآن..

وكان من الطبيعي ان تنفجر الفتاة بالبكاء. كيف يختم على سعيها

بهذا الحكم الصارم؟.. كيف، وبأي حق، يقفل في وجهها باب الامل والطموح؟..

ويبدو انه كان للدموع تأثيرها في نفس الرجل فعاد الى طبيعته الانسانية، ومنحها اجازة طيران. فكانت اول امرأة مجازة في فن الطيران في اميركا.

* * *

في السنوات التالية، اصبح الطيران الهواية المنعشة، تمارسها الصبية بفرح، بينما تنفق معظم ساعات يومها في مهنتها: التمريض.

وفي العام ١٩٣١ انتقلت لتعمل في فرع التمريض التابع لسلاح البحرية، وهناك التقت رائدة اخرى هي **اميليا ايرهارت**، التي كانت تبحث عن حاملات اجازات الطيران لتنشئ اول تنظيم دولي للنساء المجازات في هذا المجال؛ وقد اطلق على هذا التنظيم اسم يُتَراوح بين الجد والهزل وهو الـ «٩٩» اي عدد الاعضاء المنضويات. واحدة منهن كانت **ادنا**.

وتذكر عن **اميليا**، التي اختفت في ظروف غامضة عام ١٩٣٧، بينما كانت تقوم برحلة حول العالم... تذكر انها رأتها للمرة الاخيرة في ايار عام ١٩٣٧ . وتناولتا معا طعام العشاء قبيل القيام برحلتها - آخر رحلة لها فوق الارض - وقد شكت لها **اميليا** خوفها من الراديو، وهو دليل لا يستغنى عنه، لكن ما حصل ان **اميليا** ازالت هوائي الراديو، كي تحقق سرعة اوفر، ثم قررت انها لا تستطيع الطيران بلا لاسلكي، لكنها اهملت التأكد من تركيب الهوائي. وهكذا فُقدت هي ومعها طائرتها فوق المحيط الهادئ. وبذلك خسر الطيران عنصرا

من اجرأ عناصره، كما ان النساء الطامحات للطيران فقدن رائدة عظيمة...

* * *

اما **ادنا** فقد حاولت ان تنخرط في مهنة الطيران نهائيا، حين تركت التمريض، عام ١٩٣٥، وراحت تتقدم بطلبات للعمل، الى شتى المؤسسات، وشركات الطيران. لكنها لم تجد من يوافق على توظيف امرأة. وهنا، راودتها فكرة التعليم: لماذا لا تستخدم معرفتها في تدريب تلامذة الطيران؟

لم يكن حظها في القبول، افضل من حظها في ممارسة الطيران.. تذكر من محاولاتها الاولى، انه كانت هناك مدرسة للتدريب في **نيو اورلينز** يملكها رجلان. وقد رفضا بشدة طلبها، فراحت ترجو منهما ان يعطياها الفرصة. وهكذا وافقا اخيرا على ذلك، على سبيل التجربة فقط.

وراحت طاقاتها الاخرى تعمل، كي تساعدها: كانت لها طاقة هائلة على الصبر والاحتمال، وروح مرحة، تجعلها قريبة من التلامذة، الى جانب مهارة كان عليها ان تصقلها وتضاعفها، حتى تثبت قدميها.

تلك خطوتها الاولى. ثم لم تلبث ان اكتشفت حماسة الطلاب للتدرب على يديها، وهنا نشأت فكرة تأسيس معهد خاص باسمها.. اي عمل، يمكن ان يملأ القلب والجيب اكثر من مهنة نحبها؟..

* * *

الفكرة عظيمة، ولكنها بحاجة الى المال. ولم يكن لديها من

الاملاك سوى سيارتها، فقدمتها ضمانة الى المصرف لقاء قرض متواضع، واشترت اول طائرة، بالدين. وقبل ان ينقضي وقت طويل على بدئها التعليم، راح الطلاب يتدفقون من كل صوب. وبدأ العمل ينمو ويزدهر، فوسّعت المدرسة، واقترضت المزيد من المال، لتشتري اربع طائرات جديدة وهاجمها ارباب عملها السابقون. فاتهموها بسرقة الطلاب من معهدهم، وهددوها بخراب بيتها. وكانت تلك الخطوة الاولى لدخولها في جو المنافسة المهنية الحقيقية؛ كما انها شهادة على نجاحها.

وطبق منافسوها القول بالفعل، حين حوّلوا اجواء المطار الى منطقة حربية، فأخذوا يهاجمون طائراتها، ويعترضون خطوط انطلاقتها.

ورفضت هي الرضوخ لتخويفهم.

وحين لم تنجح الحيلة الاولى لجأوا الى طريقة اخرى، فراحوا يقدمون شكاوى ضدها الى سلطات الطيران المدني: وباتوا يرصدون اقل هفوة ليشيعوا بأنها تستخدم طائرات غير امينة، مستغلين الحوادث العادية، للهجوم عليها. وكادوا ينجحون، حين جاء مندوب الطيران المدني، يطالب بتجريدها من الاجازة. وكانت هذه صدمة، حرّكتها لتستشير محاميا، تناول القضية، وصمدت هي للدفاع عن النفس والمهنة.

ظلت القضية عالقة في المحاكم طوال شهر، وهي معلقة على حبل القلق، الى ان ربحت في النهاية، واعيدت اليها الاجازة، مع رد الاعتبار.

* * *

وتابعت **ادنا** التعليم حتى العام ١٩٤١، حين اضطرت الى التوقف بسبب بدء الحرب العالمية الثانية. وطلبت اليها سلطة الطيران العسكري ان تتحول الى تدريب طيارين حربيين في **تكساس**. وفي العام ١٩٤٤ خدمت في التمريض، مع القوات المتمركزة في **الفلبين**، وكانت تقود طائرات ضخمة، محملة بالجرحى، من مناطق القتال الى المستشفيات الميدانية. ومع نهاية الحرب، عادت الى ممارسة عملها، فاقترضت من حكومتها مالا ساعدها في انشاء مدرسة تدريب للطيارين الحربيين. ونجحت نجاحا باهرا، مما اضطرها الى استدعاء عدد من المدربين، كي يساعدوها في حمل اعباء العمل الكبير.

لدى بلوغها السن الرابعة والاربعين، حصل **لادنا** امر آخر، لم تكن قد اختبرته من قبل؛ لقد احبت احد المدربين العاملين معها، واسمه **جورج وايت**؛ وتذكر انها في السابق، وحين كانت اصغر سنا، كانت تبعد فكرة الحب او الزواج؛ وكلما اجرت مقارنة بين رفقة الطائرة او رفقة الرجل، كانت تختار الاولى. لكن هذا الانسان الجديد، تمكن من اختراق القلب والعقل معا، وبعد خطبة قصيرة تزوجا، وعرفت السعادة الزوجية الحقيقية. كما ان الزوج بات رفيقها وشريكها في عملها. وساعدها ذلك على النمو والتوسع.

لم ترزق **ادنا** اطفالا، لكنها حولت عاطفتها واهتمامها الى ابنة **جورج** من زواج سابق، وكانت **جورغانا** طفلة في الثامنة من عمرها، ومدربة الطيران تجهل تربية الاطفال، لكنها صممت على كسر الجليد، لتكسب عاطفة الصغيرة ورضاها... ونجحت من خلال تدريبها على الطيران. وهي الآن خبيرة في هذا المجال، وفي امكانها ان

تصبح مدربة، لكنها ترفض العمل، وتفضل ان تبقى بقرب زوجها وطفليهما.

* * *

عام ١٩٦٨ كان نقطة تحول جديدة للمرأة الناجحة، اذ مرض الزوج، ولم يعد قادرا على العمل، وساءت حالته النفسية وازداد قنوطه، وبات في حاجة دائمة الى عناية الزوجة؛ وهذا ما جعلهما يبيعان مركز التدريب، بينما تابعت **ادنا** التعليم والاشراف على راحة الزوج. لكن المرض، والضعف لم يعيقا الزوجين عن التقدم ولم يصرفا اهتمامهما عن ولعهما بالطيران. وكان **جورج** دائما يحلم بانشاء مطار خاص به وبزوجته. وقد حققا الفكرة عام ١٩٦٩ حين اشتريا مساحة كبرى من الاراضي المسطحة في **روانوك، تكساس**. وحولاها الى مطار. وكانت صحة الزوج تسوء من يوم الى يوم؛ مما وضع المسؤولية برمتها على عاتق **ادنا**. وحين توفي رفيق حياتها، عام ١٩٧٠، لم تجد مؤاسيا افضل من الطيران. وكأنما التحليق في الاجواء العليا، يبعد المرء عن مشاكل الارض، وآلام البشر، ويضعه في ذلك المدى اللامحدود من الوجود.

* * *

ومن خلال استمرارها في الطيران كانت تحقق امنيتها وامنية زوجها معا. وتدعم المطار الجديد، الذي يحتاج الى كل لحظة من **وقتها**، وكل ذرة من كفاءتها. ولكي تكمل بناء المطار كانت تحتاج الى قرض جديد. لكن المسؤولين رفضوا على اساس انها باتت في السبعين من عمرها، أي عمر التقاعد... لكن طموح المرأة لا يعرف

حدا، ولا يقيس العمر بالسنين، بل بما يتحقق من نجاح. وهي التي عاشت عمرها، تسعى وتكافح، لم تدع اليأس يتسرب الى نفسها، وبدأت تبيع طائرات تخصها، وكان لديها دزينة منها. كما اقترضت بعض المال من الاصدقاء. وفي العام ١٩٧٢ كان الحلم قد تحقق، ودشنت مطار **ايروفالي**. وكتبت على بطاقات الدعوة للتدشين: **مطار ايروفالي الحميم، يدعوكم، لقد تم انشاؤه من دون مساعدة الدولة.**

بيد واحدة، بارادة قوية، وتصميم جبار على شق السبل الوعرة، ظلت المرأة تسير، تواجه المصاعب وتتغلب عليها، ولا تيأس... وبات المطار، اليوم، يتسع لعدد كبير من الطائرات (٣٦٠) وفوق ارضه ثلاثة معاهد للتدريب: وهناك فرع خاص لتجديد الطائرات القديمة.

* * *

وقبل سنوات، اقتنعت **ادنا** بأنه من الافضل لها ان تبيع المطار وتبقى هي تمارس هوايتها وولع قلبها - تعليم الطيران. وظلت حتى جاوزت الثمانين من عمرها تعمل بنشاط متفوق، وبهمة لا تعرف الكلل، وتفاخر بأن نسبة النساء بين الطالبات تزداد يوما بعد يوم؛ ذلك انها كانت لهن المثال الاول.

* * *

ويبقى تعليم الطيران حبها الاول. لكن ابنة الاجواء العليا، والتي تسير نحو العقد التاسع من عمرها، ترفض الاعتراف بالعمر حدا لنشاطها: ففي نيسان من سنة ١٩٨٤ نجحت في مسابقة الالفين ومائة ميل من الطيران. ونالت الجائزة الكبرى. وقالت للصحافيين الذين تحلّقوا حولها وهي تهبط من الطائرة: «**سأحافظ على هوايتي،**

واخوض السباق ما دمت ناجحة في الامتحان الصحّي.. لا، لا أتطلّع الى جلوس في الكرسي الهزاز».

* * *

ان تعليم الطيران، مغامرة مستمرة، وتفتخر **ادنا** بأن مدرستها سجّلت ادنى نسبة من الحوادث. وحين وقعت لها حادثة، بينما كانت تشرف على تدريب احد الشباب؛ استخدمت «**التكنيك**» الذي تعلمه لطلابها وخففت من قوة الصدمة لكنها كسرت أنفها، واضطرت الى دخول المستشفى. وقد علقت بعد الحادث بقولها: «**كنت قلقة، على مصير الطائرة، اكثر مما فكرت في نفسي**»... لكنها عادت تؤكد أنها لم تشعر بالخوف، اذ تحس، وهي تحلق في الاجواء العليا، بأن يد الله معها، والله، الذي تؤمن به، لا يتخلى عنها في اوقات الضيق: «**طائرتي تحلق بي، في تلك الاجواء. لكني اعلم جيدا ان العناية الالهية، هي التي تحفظني وتبعد عني الشر**»...

* * *

اذا زرت مطار **ايرو فالي** في **تكساس**، او قصدته لتأخذ درسا في الطيران، لا تتعجب اذا اكتشفت ان استاذتك، **ادنا غاردنر وايت** تبدو في شكلها اقرب الى جدة طيبة، منها الى مدربة طيران. لا... لا تتراجع، اقترب منها، وصافحها باليد والبسمة، انها اول امرأة حصلت على اجازة خاصة للطيران، ووراءها ثلاثون الف ساعة في الفضاء... وعلى يديها تدرب اكثر من خمسة آلاف طيار، طوال نصف قرن من الزمن قضتها في ممارسة مهنتها، الهواية، فن التدريب على الطيران. وقد كسبت مائة وستا وعشرين جائزة، خلال شتى

المسابقات التي خاضتها. الطيران حياتها، وابرز ما في منزلها، ذلك المرآب الذي يؤوي اربع طائرات خاصة، واهم ما يشغلها حاليا، أولئك الطلاب، الذين يقصدونها للاستفادة من خبرتها، بعد انقضاء نصف قرن على ممارستها هذا الحب العجيب: التحليق في الفضاء...

- مجلة غود - هاوس - كيبينغ عدد ايلول ١٩٨٥ .
- وبعض المجلات الاميركية.

ألفَا ميردال

«أعيدوا البراءة الى الأرض.. أعيدوا إليها السلام».

«أعيدوا البراءة إلى الأرض، أعيدوا إليها السلام».

هذه العبارة، تكاد تلخص الموقف الذي وقفته **ألفا ميردال**، منذ عشرات السنين، وعملت من أجله، وناضلت، واشتركت في المؤتمرات الدولية، والمناقشات الحامية، وتهجمت على الدول التي تصنع الحروب، وتصدر السلاح للشعوب الصغيرة والمغلوبة على أمرها.

وفي منتصف شهر تشرين الأول عام ١٩٨٢، نالت المرأة المكافأة، وأعطيت **جائزة نوبل للسلام**، مناصفة مع مناضل آخر من أجل السلام، هو الدبلوماسي المكسيكي **ألفونسو غارسيا روبلز.**

* * *

امرأة سويدية، أي أنها قادمة من مناخ القطب الشمالي، ومن بلاد بعيدة عن المناطق الساخنة، والحرائق الصغيرة والكبيرة التي تشعلها سياسة العصر، في البلدان الصغرى، وتشغل بها الشعوب، فتبعدها عن مهمات أرقى وأعظم، وتؤخر بذلك تقدمها ونموها... لكنها لم تسمح للبعد الجغرافي بأن يقصيها عن الإِنسان، حيثما وجد هذا الإِنسان.

وفي الواقع أنها اهتمت بشؤونه، منذ أن بدأت تعمل، على صعيد المسؤولية الوطنية والدولية.

* * *

ولدت **ألفا** في ٣١ كانون الثاني عام ١٩٠٢، في مقاطعة **أوبسالا** في **السويد**. والداها **ألبرت ولوا ريمر**. ونالت دراستها العليا في جامعة **ستوكهولم** ثم في جامعة **أوبسالا**.

وتابعت الدراسة في لندن **وليبرغ**، ونالت الدكتوراه، ثم منحت ست شهادات دكتوراه شرف، وذلك في السنوات التالية، والتي حاضرت خلالها في عدد من الجامعات الأميركية والأوروبية، في مواضيع، تتراوح بين التربية، للأطفال، ما قبل السن الدراسية، والتعليم للبالغين، وأحوال السجون، وحقوق المرأة، والقضايا السكانية، ومساعدة المعاقين، إلى أن انتهت في قضايا السلاح، والحروب النووية، ونصرة السلام في وجه الحروب ومسببيها.

* * *

وبالطبع، لا تكتفي المرأة بالكلام والمحاضرات، بل ان موقفها هو نمو طبيعي للمراكز التي شغلتها، والأعمال التي حققتها منذ العام ١٩٣٥ حتى اليوم، وأهمها: تعيينها سفيرة **للسويد** في بلاد **الهند**، **وبورما**، **وسيلان والنيبال** وذلك لمدة ست سنوات. وكانت قبلها رئيسة دائرة العلوم الاجتماعية في **اليونسكو**. وبقيت بعد هذا التاريخ، سفيرة فوق العادة في وزارة الخارجية في بلادها. وعُيّنت رئيسة لوفد **السويد** إلى مؤتمر نزع السلاح في **جنيف**، كما ترأست وفد **السويد** إلى الأمم المتحدة عام ١٩٦٢ وانتخبت نائبة في البرلمان، ثم وزيرة لنزع السلاح.

عند هذه المحطة لا بد لنا من وقفة وتعليق: إذ إن المعروف والمعلن، لدى الدول، الكبيرة والصغيرة، أنها تعين وزراء للدفاع، أو للتسلح،

وقد يكون **السويد** البلد الوحيد الذي فكر في وزارة مضادة... كما أن **ألفا ميردال**، هي المرأة الأولى التي تتولى هذا المنصب.

وتتعمق جذور نشاطها في مؤلفات عدة نشرتها، وتدور حول خبرتها في شتى الحقول العلمية والاجتماعية، والسياسية. وان كتابها **«لعبة نزع السلاح»** يبقى الأهم، فقد صبت فيه غضبها على الدولتين الكبريين إذ تقول:

«إن الدول الكبرى تلعب أدوارها، وتتظاهر في أنها تبحث في موضوع نزع السلاح، وترسل بعثاتها إلى المؤتمرات، بينما هي في الواقع، تبحث عن وسيلة لإضاعة الوقت، من أجل المزيد من التسلح... ان القوتين العظمين تقفان جنباً إلى جنب، بينما نمضغ نحن طعم الخيبة...».

* * *

وبفضل **ألفا** أنشئ في **السويد** معهد خاص لنزع السلاح، اسمه المختصر **سيبري**، وتصدر عنه نشرة شهرية تحوي معلومات نادرة وغريبة عما يدور خلف كواليس الحروب.

وفي آخر ما نشره المعهد رقم مخيف، عما ينفقه العالم، سنوياً، في سبيل التسلح، وهذا الرقم يبلغ ٥٠٠ ألف مليون دولار. أما الدول التي تصدر إليها الأسلحة فهي دول **آسيا وأفريقيا**، وفي مقدمها الشرقان الأوسط والأقصى.

هناك رقم آخر تتوقف عنده **ميردال**، وهو زيادة قواعد الصواريخ، في العالم، إذ ارتفع رقمها من خمسمائة قاعدة عام ١٩٦٢ إلى

خمسة آلاف في العام ١٩٨٢ .

* * *

طبعاً، الموضوع بعيد عن الأمور التقليدية التي تثير اهتمام المرأة عامة.. لكن **ألفا ميردال** ليست امرأة عادية. وهي بمثابة نبض الضمير، في هذا العالم الذي جففت عروقه الحرب، وامتصت حيويته أخبارها، وانتزعت فرحه، آثارها، وما تخلفه من دمار ومآس. وان الإِنسان الذي عاشها، في لبنان وسواه، يمكنه أن يقدّر الدور الذي تقوم به هذه المرأة وجماعتها. وهو على تواضعه، يعطي بصيص أمل للذين كادوا يفقدون، كل أمل، في الإِنسان، وطموحه.

وميردال لا تدعي أنها تصنع المعجزات، إنما لا تكتفي بإنارة الشمعة وحسب بل تناضل مع حركة واسعة، وموزعة في عدة بلدان، من أجل الوصول إلى تحقيق الهدف، ونشر نور رسالتها في أوسع رقعة ممكنة.

وتقول عن الجائزة التي نالتها: انها جاءت في وقتها، لتدعم اللجنة في حملتها من أجل نزع السلاح. أي أنها تعلن كما يعلن شريكها **روبلز** بأنهما سيحولان المال من أجل القضية.

وبالنبل المعروف عنها، وبكل تواضع تقول في حديث لإِحدى المجلات العالمية: «**كنت أقل فخراً لو نلت الجائزة وحدي.. نحن لسنا شخصين، بل حركة كبرى. والجائزة اعتراف بحركتنا.**»...

* * *

ومن أطرف ما ترويه **ألفا** أنها لم تكن تعلم شيئا عن موضوع نزع

السلاح. وذات يوم طلب منها وزير خارجية **السويد أوستن أوندن** مساعدته في إعداد خطابه الوداعي في **الأمم المتحدة**. واستمهلته أسبوعين، أجرت خلالهما أبحاثاً ومطالعات حول الموضوع، جعلتها ترتبط به ارتباطاً وثيقاً، ثم تركز جهودها في هذا السبيل.

ويسألها أحد الصحافيين: «**أي واحد من إنجازاتك المتعددة، كان الأهم، في نظرك؟**»، فتقول: «**ان أهم ما قمت به، تم تحقيقه في بلادي. لقد نجحت في إدخال الاصلاح على النظام العائلي في السويد، والنتيجة هي التالية: عناية صحية مجانية، تطبيب مجاني، وتعليم مجاني. وهذه ثورة اجتماعية وثقافية عامة، بدأت قبل ثلاثين سنة، واليوم باتت تعطي ثمارها**»...

وتتابع المرأة المنهمكة بحلم السلام: «**يؤسفني أنه لم يبق لي الكثير من العمر، كي أشهد تحقيق الجهد الذي بذلناه، من أجل نزع السلاح**».

* * *

وقبل **جائزة نوبل**، منحت **ألفا** جائزة **السلام** من **ألمانيا الغربية**، وذلك عام ١٩٧٠ وجائزة **ألبرت أينشتاين** للسلام عام ١٩٨٠ . وتألفت لجنة خاصة، في **النروج**، للمطالبة **بجائزة السلام الكبرى** من أجل هذه المرأة وذلك بعدما تجاوزتها لجنة **نوبل** عدة سنوات ومنحت الجائزة لسواها.

وكان زوجها **غونار ميردال** قد نال جائزة **نوبل** للاقتصاد عام ١٩٧٤، وهذا يذكر بزوجين نالا الجائزة معاً هما **بيار وماري كوري**، عام ١٩٠٣ والأميركيان **كارل وجيرتي كوري** عام ١٩٤٧ .

وتعود الصحافة تطرح على المرأة الهادئة، ذات الوجه الصافي، والشعر الرمادي، سؤالاً جديداً حول المنافسة بين الزوجين، فترد بهدوء:

- أنا، وزوجي سفينتان مختلفتان، إنما نبحر معاً في إتجاه واحد.. ثم... ماذا يبقى من مجالات التنافس، حين تكون المرأة في الحادية والثمانين من العمر، والرجل في الثالثة والثمانين؟.. ويكون كل منهما قد حقق أحلام العمر وتوصل إلى نجاح باهر، بل إلى قمة النجاح، وقطف الرضى النفسي، الذي يغرسه نجاح مرتبط بخير الإنسانية.. ويكون قد أنجب ثلاثة أولاد، يتابعون، بعده، شق الطريق الجديدة، لبلوغ قمم أبعد؟!..

* * *

من أجل الإنسان، عملت المرأة. من أجل تقدمه، رقيه، وسعادته فوق هذه الكرة الأرضية، فهل ظلّت متفائلة بمستقبل ينتظره عند انعطاف القرن العشرين، وبزوغ شمس القرن الجديد؟...

ألفا ميردال متشائمة بمستقبل البشرية. وهي ترى أن هناك تدهوراً خطيراً فيما يتعلق بنزع السلاح، أو الحد منه. وأن الدولتين الكبريين لا تسعيان للعمل بجد من أجل هذه الغاية، وفي يديهما مفتاح الحل والربط. كما ترى السلام مهدداً بأزمات كبرى بدأت تذر قرونها، منها الأزمة الاقتصادية، والسكانية ثم مشكلة البطالة.. أما كبرى الازمات فهي عدم اهتمام القادرين على العمل وترك الأمور تجري على هواها، وكما يسيرها سياسيون أنانيون... بينما العالم يحتاج الى الرحمة، والى الكثير من المحبة والسلام.

وفي أول شباط، عام ١٩٨٦، أغمضت **ميردال** عينيها في أحد

مستشفيات **ستوكهولم** على اثر معاناة مرضية طويلة، تاركة حلمها الكبير في حضن عالم يتظاهر بأنه يسعى الى تحقيق السلام.

- مجموعة مقالات خاصة من أرشيف السفارة السويدية.
- سيرة حياة العالمة من المصدر نفسه.

بربارة ماكلنتوك

«حين تعلم بأنك على حق، سوف يأتي يوم، يعترفون فيه بحقك هذا».

هذه إمرأة من عصرنا، تطل من على الصفحات الأولى، في أكبر الصحف العالمية، وتتصدر أخبارها النشرات التي تبث علينا من الجهات الأربع:

إنها إمرأة ناجحة. بل حققت نجاحاً غريباً، بمفردها، وبكل الوحدة التي قاستها طوال أربعين سنة.

إنها: **بربارة ماكلنتوك.** المرأة النحيلة، الصغيرة القد والعالمة، الباحثة، التي جعلت مختبرها الصغير النائي، علماً تتجه إليه الأنظار، من شتى أصقاع المعمور، وذلك بعدما أعلنت لجنة **جائزة نوبل** للعلوم، بأنها استحقت وحدها، جائزة الطب عن العام ١٩٨٣ .

* * *

وبذلك تكون **بربارة** حسب الاحصاءات، منذ إنشاء الجائزة، المرأة السابعة التي تنال **نوبل للعلوم**، والثالثة التي تستحق الجائزة منفردة. أي من دون مشاركة أحد، لا من الرجال ولا من النساء.

وسبقتها إلى هذا الشرف الرفيع، إثنتان من بنات جنسها، إحداهن: **ماري كوري** في فرنسا التي نالتها عام ١٩١١ على اكتشافها «**الراديوم**» و «**البولونيوم**» (وهما اسمان هامان في تاريخ اكتشاف الذرة) ثم البريطانية **دوروثي كروفوت هودجكن** عام ١٩٦٤، لتحليلها تركيبة «**البنسلين**»، ومركبات أخرى.

كذلك هي المرأة الأولى، التي تنال هذه الجائزة في الطب الفيزيولوجي، أي علم وظائف الأعضاء.

ولدت **بربارة** في ولاية «**كونيتيكات**» الأميركية،عام ١٨٩٩ . وهي الثالثة من أربعة أولاد. ولا نعلم الكثير عن طفولتها، سوى أن والدها، كان طبيباً في مدينة **هارتفورد**، وانصرفت هي منذ حداثتها، إلى دراسة العلوم، واقتفاء خطى أبيها، هذا برغم اعتراض الأم، التي كانت تعتقد أن الجامعة ليست مكان المرأة بل ان مكانها الطبيعي، بعد تحصيل قدر يسير من العلم، هو البيت والعائلة.

* * *

وبربارة كانت تتطلع في اتجاه معاكس: فدخلت جامعة «**كورنيل**» وهي في السابعة عشرة من عمرها، وأرادت أن تتخصص في علم تطوير النبات: ولكن، وبما أن هذا الاختصاص لا يناسب الطبيعة الأنثوية، على حد تعبير ذلك الزمان، فقد اكتفت بدراسة علم النبات أو «**البوتاني**» ونالت شهادة دكتوراه في الخصائص الوراثية للنبات عام ١٩٢٧، ومن هنا، بدأت علاقة حب، بينها وبين نبات الذرة، الذي ركزت عليه اختباراتها ودراساتها.

أبو عبدو البغل
https://facebook.com/groups/abuab/

* * *

لم يكن سهلاً، على الصبية العالمة، والتي لا يزيد طولها على ١٥٢ سنتم، (أي بحدود المتر ونصف المتر) وتزن ٤٥ كيلوغراماً... لم يكن سهلاً عليها أن تجد وظيفة بالشهادة التي تؤهلها للتدريس الجامعي. ذلك أن المرأة لم تكن قد أطلت على مجالات علمية تتوفر لها في أيامنا الحاضرة. وراحت **بربارة** تنتقل من وظيفة إلى أخرى. وبقيت

سنين عاطلة عن العمل. ثم عطفت عليها مؤسسة «**كارنجي**» في «**واشنطن**» وقدمت لها بقعة صغيرة في مختبرها الخاص، بعلم الوراثة، والواقع في منطقة «**كولد سبرينغ هاربور**» حيث لا تزال مقيمة، ومنذ أربعين سنة.

وتعترف هي بفضل المؤسسة عليها، إذ لم يكن هناك من يتفهم طبيعة تجاربها، أو يرى فيها أية فائدة قريبة. وتقول العالمة في معرض اعترافها بالجميل: «**لو كنت في مكان آخر، لطردوني من زمان، من أجل ما أقوم به.. لم يكن هناك من يتقبل الفكرة التي سعيت الى تحقيقها**»...

* * *

وفي الواقع، إن اختيارها لجائزة «**نوبل**»، كان مفاجأة للجميع. ودوى الخبر في كل مكان، إلا في أذني صاحبة العلاقة، ذلك أن العالمة تسكن شقة صغيرة، لا يصلها الهاتف، وقد سمعت الخبر مصادفة، حين كانت تصغي إلى نشرة الأخبار، لتعرف، ماذا يدور في العالم، خارج مختبرها، وإذا بها تسمع اسمها مشفوعاً بعبارات التقدير، وشهقت: «**يا إلهي!**»...

وكانت النشرة تبث في الساعات الأولى من الصباح: ولم يكن هناك من يشاركها الفرحة. على كل، لم تتحمس العالمة كثيراً، ولم تفكر في ان خبراً كهذا، يمكن أن يغير برنامجها اليومي؛ فقامت ترتدي ثيابها التي تشبه كثيراً ثياب الرجال الكادحين الذين يعيشون خارج العصر وأزيائه، وخرجت لتقوم بنزهتها المعتادة، في حرج قريب من المختبر. ثم راحت تجمع في طريقها، الثمرات المتساقطة من أشجار

الجوز البري. فإن نيل جائزة «**نوبل**»، لا يستدعي أي تعديل في البرنامج المألوف.

* * *

في المقابل، كان العالم الذي استفاق على هذا النبأ يتساءل: **من تكون صاحبة الاسم؟...**

وكتب الصحافي - الاذاعي الشهير «**أليستيركوك**» في رسالته الأميركية الى الاذاعة البريطانية مقالاً خاصاً عن المرأة، تساءل فيه، بأسلوبه الطريف الشيق: «**من تكون صاحبة هذا الوجه، الذي أطل على الصفحة الأولى في صحف كبرى مثل «نيويورك تايمز»؟...**

وما الذي يؤهل وجهاً يشبه تفاحة ترتدي نظارات طبية.. أن يحتل ذلك المكان؟...

ثم يمضي في تساؤله:

- تراها جدة لبحار أميركي قتل على الشواطئ اللبنانية؟ أم أنها تقوم بدعاية لاكتشاف دواء لآلام العصبي؟.. أم تراها تعلن عن صنف جديد من الفطائر التي تصنع على طريقة الجدات؟ من تراها تكون، صاحبة الوجه العادي، المجعد، الشبعان من الأيام، وقسوتها؟...

* * *

وربما سمعت **بربارة**، فيما سمعته من تعليقات حولها، هذا التساؤل. وقد تكون ضحكت، حين جاء الرجل على ذكر الشكل والأناقة، فهذه أمور، ليس لها أي مكان في حياتها. كما أنها عاشت

سنين طويلة، مع الكدح الذي لا يعد بنجاح سريع، وسارت طويلاً في نفق، لا يبدو في طرفه أي بصيص للنور.

ومع ذلك، تابعت السعي، متعلقة بحبل إيمانها، معتمدة على فلسفة بسيطة ظلت تتردد في بالها، وتقوي عزمها، وتؤنس وحدتها: **«حين تعلم بأنك على حق، سوف يأتي يوم، يعترفون فيه بحقك هذا»**.

وجاء هذا اليوم، ليغدق عليها أرفع رتبة، وأعلى شرف في مهنتها العلمية. واعترف لها كبار العلماء بالاكتشاف الجديد في علم الجينات... أو الخصائص الوراثية، والمفروض أن تحدث انقلاباً في مستقبل الطب الحديث.

ومن نبذة تاريخية عن هذا العلم، نعرف أنه نشأ في القرن التاسع عشر، مع راهب **«أوغستيني»** يدعى **غريغور مندل. وبربارة** تلميذته المخلصة. ومثلما كرس هو حياته للأبحاث، كذلك فعلت هي، منذ نصف قرن، حين اعتزلت العالم، وحصرت نشاطها في بقعة غرست فيها نبات الذرة الهندية. والفرق بينها، وبين أستاذها الأول، أنه عمل على نبات الفاصوليا، بدل الذرة. لكن، هناك فرقاً كبيراً بينها، وبين علماء عصرها، ففيما يعمل هؤلاء في فريق مؤلف من عدة أشخاص ومساعدين، ظلت **بربارة** تعمل منفردة، ولم يكن عندها اي مساعد... أي أنها كانت تقوم بكل الأعمال اليدوية والجسدية، إلى جانب الأعمال الفكرية والذهنية. وتذكرنا، من هذا القبيل، بالعالمة **ماري كوري** التي قدمت للعلم واحداً من اعظم اكتشافات العصر، في مختبرها المعدم.

ويُذكر عن **ماكلنتوك** أن أحد زملائها العلماء، مر بها ذات يوم، في الخامسة بعد الظهر، فاعتذرت منه عن بحة في صوتها: «**العفو عن هذه البحة.. إنني لم أستخدم حبالي الصوتية هذا النهار**». وهذا دليل على العزلة التي كانت تعيش وسطها، يوماً بعد يوم، تتعامل مع أدوات مختبرها، وعرانيس الذرة، وهذه بالطبع، لا تتحاور بالكلام.

هناك سبب آخر، مهم، لبقائها في شرنقة عزلتها، فترة زمنية طويلة، وهو عدم اكتراث زملائها للمجهود الذي بذلته في بحثها العلمي.

وكأنهم بصمتهم، كانوا يعترفون بعدم جدوى عملها. ذلك أن طبيعة البحث، لا تخلو من التعقيد والغموض، إذ تتعلق بعلم الوراثة. وقد اعلنت، أن «**الجينات**» أو الخصائص الوراثية، ليست مثبتة على «**الكروموزوم**» أو «**الجسم الخيطي الكروماتيني الذي يظهر في نواة الخلية عند انتشارها**».

وإذا كانت هذه الكلمات علمية، وغير معروفة في قاموس عامة الناس، فإنها مألوفة في لغة العلماء، بل تكاد تكون بسهولة الألف باء لديهم.

وتتابع **بربارة** شرح اكتشافها: «**الجينات ليست كحبات اللؤلؤ المرصوفة في العقد، بل انها تتحرك، وبأسلوب غير متوقع...**».

والمشكلة، أنها أعلنت هذه الحقيقة العلمية في مرحلة مبكرة، أي عام ١٩٥١، حين لم يكن في العالم كله، خمسة علماء، يقدرون معنى كلامها.

تلك هي مشكلة **بربارة**. بقيت مغفلة، هي واكتشافها، أكثر من ثلاثين سنة، إلى أن تقدم العلم، والطب في شعاب أخرى تختلف عن

شعبتها، وألقى هذا التقدم، ضوءاً جديداً على عملها، وقفز إلى الواجهة، الاكتشاف المكتوم، وراح العالم يحث الخطى في أثرها.

* * *

«حين تعلم بأنك على حق، فسوف يأتي يوم يعترفون فيه بحقك هذا».

وغاصت لجنة **جائزة نوبل** في الدراسة، وأطلقت الصرخة التقليدية عالياً: **«إن عملها الذي تم في هدوء مختبرها، هو واحد من إكتشافين يكوِّنان أعظم ما عرفه زماننا في علم الوراثة»... والاكتشاف الأول تم عام ١٩٥٣، وقام به جيمس واطسون وفرانسيس كريك.**

ويقول **واطسن** وهو مدير **بربارة** منذ خمس عشرة سنة: **«لا جدل في استحقاق بربارة هذه الجائزة، إذ لا أحد يستطيع، بعد اليوم، أن يفكر بالجينات، من دون الاعتماد على عملها».**

* * *

لم تكن الحياة التي عاشتها المرأة خالية من الخيبات. وإن صراعها في حقلها المنفرد، كان يبدو للجميع، غير مقنع، بل إنه مضيعة للوقت والجهد. ومع أنها انتخبت في عضوية الأكاديمية للعلوم عام ١٩٤٤ – وهي المرأة الثالثة التي تنال هذا الشرف – إلا أن زملاءها، سرعان ما أداروا أنظارهم عنها. وكأن نظريتها، كانت مطرقة تدق على صوابهم، أو كأنها كانت الكفر في دنيا إيمانهم: **«كلهم اعتقدوا أني مجنونة.. فاقدة العقل والمنطق».**

تتذكر المرأة ذلك، من دون أي حقد أو ملامة. وحدها، كانت تعلم، كم هي على حق. بل إن الحقيقة بدت لها ساطعة، واضحة وضوح عرانيس الذرة بين يديها.

وتابعت غرس الذرة، وتلقيح الزهر، وتسجيل التعديلات التي تحدث مع كل فوج. لاحظت، ان تبدل ألوان الحبات، فوق العرنوس، لا يتبع خطاً منتظماً جيلاً بعد جيل. وهذا ما قادها إلى التأكيد أن الجينات تقفز من مطارحها، بدافع عنصر محرك استطاعت أن توضحه مخبرياً.

لكنها لم تنشر هذه النتائج التي توصلت إليها، في المجلات والمنشورات العلمية، إذ كانت أكيدة بأن أحداً، لن يحمل كلامها على محمل الجد: «**لا أحد يهتم لقراءة ما أكتب.. فلماذا العناء؟**».

هذا ما تذكره، بلا أسف، لأن عدم تشجيع الزملاء، لم يثنها عن عزمها، ولم يلو إرادتها. وهي في عنادها ذاك، تعطي درساً هاماً في صلابة الارادة، وقوة العزيمة، خصوصاً إذا اقترنتا بالثقة والايمان.

* * *

والآن، أصبح «**الجينات ماكلينتوك القافزة**» على حد تعبير العلماء، مكاناً بارزاً، في علم الأحياء.

وأدخلت إلى حقل الطب نظرية جديدة تقول بأن الجراثيم حين تقاوم المضادات، تنقل المناعة إلى جراثيم أخرى. أي تبطل مفعول الدواء المضاد. كذلك يمكن هذه الجينات أن تلعب دوراً كبيراً في تحويل الخلايا السليمة إلى خلايا مصابة بداء السرطان، ثم تزيد في سرعة انتشار المرض.

هذه هي النقطة الجوهرية في اكتشافها، بالنسبة الى التقدم الطبي.

وحين اعترف العالم باكتشافها عام ١٩٨١، كان النجاح مثل تفجر الصاعقة. ونالت جائزة تقديرية بقيمة ١٥ ألف دولار، وثانية بقيمة خمسين ألف دولار. وسميت زميلة في مؤسسة **مارك آرثور** في **شيكاغو** وذلك يعني دخلاً من ستين ألف دولار في السنة، معفى من الضرائب، ويدوم مدى الحياة.

إذاً، بدأ العلم يقدر المرأة النحيلة، الهادئة، والمجتهدة مثل نحلة. لكن ردود فعلها لم تكن تنم عن الفرح المطلق: «**كنت أحس بالضيق. لست الشخص الذي يهتم بالمقتنيات...**».

لكنها برغم ذلك، اشترت سيارة «**هوندا**» جديدة، وانتقلت من المنزل المتواضع الذي سكنته مدة عشرين سنة، والذي يتألف من غرفتين فوق كاراج، لتقيم في شقة أوسع وفي منطقة غير مزدحمة بالناس.

* * *

إن تقليد الجائزة يقتضي ظهور صاحبها، في مؤتمر صحفي. ولم تبخل **بربارة** على الصحافيين بتلك المقابلة: كانت تحمل «رفيق دربها» عرنوس الذرة الذي تمازجت فيه الألوان بين الأصفر، والأسود والأزرق وتُبدي استعداداً طيباً، للإجابة عن كل سؤال يطرح عليها.

وبالطبع، كان السؤال الأول: **ماذا تنوي أن تفعل بالمال الذي جاءتها به الجائزة (أي ١٩٠ ألف دولار)؟...**

وتعثرت بالجواب، لأنها لم تكن تعرف ما هي قيمة الجائزة.

* * *

لكنها بالتأكيد، تعرف ماذا ستفعل بوقتها: «**سأتابع العمل في حقل الذرة، في المختبر. إن في ذلك، كل الفرح والمتعة، ولم أفكر يوماً في اني ساتوقف عن العمل، ما دامت فيّ ذرة نشاط.. وسوف أعمل ساعات طويلة، في الليل، كما في النهار، لأني أكره النوم. ولا أظن هناك حياة أفضل من الحياة التي أعيشها، غارقة في عملي**».

لكنها كانت مضطرة إلى الغياب عن عملها بعض الوقت، كي تقوم برحلة إلى **ستوكهولم**، وتتسلم الجائزة بنفسها.

* * *

وقد كتبت إحدى الصحفيات الأميركيات: **ان هذه المناسبة، قد تضطر بربارة إلى شراء ثوب أنيق، يليق بوقوفها فوق واحد من أرفع المنابر العلمية**.

والمحررة التي كتبت هذا الكلام، تعلم جيداً، أن العالمة لم تكترث طوال حياتها، لمظهرها الخارجي، وأن بلوغها قمة النجاح العلمي، لم يتم عن طريق المظهر بل الجوهر، الذي اكتشفته في نفسها باكراً، وراحت تغذيه وتنميه، من دون أن تفسح المجال للمغريات، بأن تثنيها عن عزمها أو تنحرف بها عن طريق المسيرة التصاعدية.

تقول الشاعرة **أليزابيت براوننغ**: «**للحب عدة وجوه..**»

كذلك النجاح، يأتي من عدة طرق، وينبع من مصادر لا تحصى ويكون هناك، عند المنبع الأول، إنسان تميز بالعطاء.

- رسالة من أميركا - اليستير كوك، ٢٣ تشرين الاول ١٩٨٣ .
- نشرة عن حياة العالمة - أرشيف المركز الثقافي الاميركي.
- مجلة تايم - عدد ٤٣ - سنة ١٩٨٣ .

هيلين سوير هوغ

«إن عالِمَ الفلك بدون إيمان، هو إنسان مجنون»..

كانت طفلة صغيرة، تجلس فوق حضن والدتها، وتعدّ النجوم. وكانت الأم تحب مراقبة النجوم، وهذا اول درس لقنته طفلتها: تلك الانوار البعيدة المشعة، من، يا ترى، يُدرك اسرارها؟...

وفي بعض الاحيان، كانت الام تنتقل الى مجال آخر في الطبيعة، فتحمل الطفلة الى البراري، تجمع معها الحجارة الغريبة، والازهار النادرة، حتى اذا ما رجعت الى البيت، حاملة تعب النهار، جلست تقرأ لها مقطوعات شعرية في وصف الطبيعة.

* * *

ولم تكن الصغيرة تدرك، أن هذه الدروس الاولى، سوف تحملها بعيدا في نطاق استكشاف العوالم الفلكية. فالحجارة والأزهار جميلة، لكن الغموض السحري، في تلك العوالم المجهولة، ظلّ يشدها، وعاد فاستيقظ في نفسها حين كانت في سنتها الجامعية الثالثة: فجأة، شعرت بأنها تميل الى المضي في دراسة علم الفلك. ولم تندم فيما بعد، باتت النجوم رفيقات العمر، ومادة العمل والبحث.

* * *

نشأت **هيلين سوير** في اسرة ثرية؛ فأبوها رجل اعمال ناجح. وهي الابنة الثانية في العائلة. ولدت عام ١٩٠٥ وكانت في الخامسة من عمرها، حين تزوجت شقيقتها الكبرى، وبقيت هي الطفلة الوحيدة

في البيت. ولما بلغت السن الثانية عشرة، توفي الأب، وتركها مع امها. وكانت تعيش معهما استاذة صديقة، ساهمت في تنشئة الفتاة وتفتيح ميولها العلمية. فنمت على احترام العلم وحب الطبيعة. وحين أنهت دراستها الثانوية عام ١٩٢١ صُنِّفَت في درجة متفوقة. وباتت مستعدة لدخول الجامعة، وتابعت دراستها الجامعية في كلية «**ماونت هوليوك**» بعدما استراحت سنة في البيت بسبب صغر سنها.

* * *

حين دخلت **هيلين** الجامعة، في خريف العام ١٩٢٢، لم تكن تقدّر انها، في خلال سنوات قليلة سوف تساعد في قياس المسافات التي تفصل بين النجوم، كما انها لم تحلم مطلقا بأن تصبح المساعدة الاولى للدكتور **هارلو شابلي**، مدير مرصد **هارفارد**، اهم الجامعات الاميركية.

بدأت بدراسة العلوم الكيميائية، بقصد التخصص فيها. ولم تكن تشك في حسن اختيارها، الى ان التقت الدكتورة **سيويل يانغ**. وكان ذلك اللقاء المنعطف القدري في حياتها؛ **فيانغ** رئيسة دائرة علم الفلك في جامعة **هوليوك**، والنجوم اهم موضوع في حياتها. واستطاعت ان تؤثر على طالباتها، وتجذبهن الى مدار اختصاصها. **وهيلين** واحدة منهن.

* * *

وفي شهر كانون الثاني من عامها الجامعي الاول، حدث كسوف كامل في الشمس، رصدته الأستاذة قبل موعده، ودعت طالباتها الى مرافقتها في رحلة الى ولاية اخرى، كي يتسنى لهن مشاهدة ذلك

الحدث بوضوح. ووقف الجميع، في حقل فسيح، مغطى بالثلوج، في انتظار اللحظة الحاسمة... وتذكر العالمة ذلك النهار جيدا: «**قبله، لم اكن اعرف معنى الصقيع**».

* * *

كانت **هيلين** في السنة الرابعة حين زارت الجامعة الدكتورة **آني كانون** واطّلعت عن كثب على نشاط طالبات علم الفلك. وبنتيجة تلك الزيارة، حصلت **هيلين** على منحة لتدرس سنة في **رادكليف**، الفرع النسائي لجامعة **هارفارد**. حيث يسعها متابعة دراستها وتخصصها. وقد بدأت ملاحظة مجموعة من الكواكب تُعرف باسم «**عناقيد النجوم الدائرية**»، كانت مدار اهتمام الدكتور **شابلي**. وهذا ما اعطاها فرصة العمل معه مباشرة. ونشرت نتيجة بحثها وعملهما المشترك في المجلة العلمية في الجامعة، حاملة توقيع **هيلين سوير وهارلو شابلي**.

كذلك نشر في العدد ذاته تقرير يحمل توقيع الشاب الكندي **فرانك هوغ**، الطالب في دائرة علم الفلك. ولم تلبث **هيلين** ان تعرفت اليه. واكتشفت ان بينهما الكثير من الاهتمامات المشتركة، على الصعيدين الشخصي والعلمي. وسرعان ما تحابا، انما لم يقررا الزواج، إذ كان على **فرانك** ان يقضي سنة في **بريطانيا**، بينما تابعت **هيلين** أبحاثها في عالم الكواكب. وحين عاد، تزوجا، وانصرف الى التدريس في جامعة **امهرست** بينما تابعت الزوجة الأبحاث والتدريس. وقد اهّلها البحث الجدي الى أن تحظى بشهرة علمية واسعة وظلت توقّع دراساتها باسم الدكتورة **هيلين سوير**، كي لا

يحصل التباس بين عملها وعمل زوجها. لكنها حملت اسمه في الحياة الاجتماعية والعائلية.

في خريف ١٩٣١ انتقل الدكتور والدكتورة **هوغ** الى مقاطعة **كولومبيا** البريطانية، في **كندا**، حيث دعي **فرانك** لتسلّم وظيفة في مرصد **فكتوريا**، وبقيت الزوجة بلا عمل، لكنها لم تتوقف عن متابعة بحثها الشخصي. وسُمح لها باستخدام المرصد لتلك الغاية. ثم لم تلبث ان أصبحت اما لطفلة سمتها **سالي**. وهذا ما شغلها الى حين، ثم أعقبتها بولدين. ولم تشعر مطلقا، بأن مجالها العلمي يُعيق أمومتها. وكان الاولاد اكبر عزاء لها حين فقدت زوجها باكرا، ولم يتجاوز السادسة والاربعين من عمره.

* * *

في مرصد الجامعة تمكنت العالمة من التقاط صور لثماني مجموعات من الكواكب. وحتى ندرك اهمية عملها، لا بد من بعض الشرح: فقد اهتم علماء الفلك **بعناقيد النجوم الدائرية** التي كانت مجهولة من قبل. وكل عالم سجل اكتشافه. بعض تلك **العناقيد** يضم ألوف النجوم. بينما يبلغ الرقم مائة الف نجمة في بعض المجموعات. ولا تبقى النجوم على حالها: فهي تتألق، ثم تخبو في فترات متباينة. لذا تُعرف باسم **النجوم المتقلبة**. ودراستها امر مهم لعلماء الفلك، اذ عبْرها يقيسون المسافة التي تفصل بينها وبين الارض. وبما انهم يستخدمون المسافة الضوئية لتسجيل الحساب الزمني، فان تلك النجوم بالذات، تشكل حجر الاساس في كثير من ابحاث الفلك.

* * *

خلال ثلاث سنوات من الرصد، تمكنت الدكتورة **هوغ** من التقاط اربعمائة صورة، كما اكتشفت نجوما جديدة لم تكن معروفة قبلها. وبلغ عدد النجوم الجديدة مائة واثنتين وثلاثين نجمة. أي بزيادة عشرة في المائة عن الرقم المعروف من قبل. وهذا، في حد ذاته، انجاز رائع.

اما عملية التقاط الصور، فلم تكن سهلة، فبينما كانت تنجح في التقاط الصورة خلال دقيقتين، اضطرّت في بعض الحالات، الى التركيز مدة ستين دقيقة لتتمكن من التصوير.

وبالطبع، كان عليها ان تختار فصول الصحو، حين تسمح نقاوة الجو بصفاء الرؤية. والطريف، ان العالمة الأم، لم تتوقف عن بحثها حتى بعد ولادة طفلتها، **سالي**. وظلت تحملها الى المرصد، كي تتسنى لها متابعة العمل، والإشراف على العناية بها.

* * *

حين أنشأت جامعة **تورنتو** مرصدها، دعت الزوجين العالمين للإنضمام اليها، فأصبح **فرانك** أستاذا في دائرة العلوم الفلكية، وقُدّمت **لهيلين** وظيفة مميزة في المرصد، أهّلتها لها مقدرتها، وشهرتها العلمية.

ثم اصبح **فرانك** مديرا للمرصد وهو في الحادية والاربعين من عمره. أي قبل وفاته بخمس سنوات. ويكون مجموع السنوات التي عاشها الزوجان معا في الجامعة سبع عشرة سنة وكانت حافلة بالنجاح، مليئة بثمار العلم والأطفال. وبعد وفاة الزوج شعرت **هيلين** بحاجة قصوى الى متابعة العمل، إذ باتت المعيلة الوحيدة، كما ان

عليها الاّ تفلت الخيط، وتعمل بجهد للتعويض عن عطاء رفيق العمر. وفي العام ١٩٥٧ عُينت استاذة في الجامعة، وهذا شرف غير عادي، بالنسبة الى امرأة، حينذاك...

حتى هذا التاريخ، كانت الدراسات والابحاث والصور جميعها نتيجة عملها في شمال البلاد. لكنها حصلت على منحة، مكّنتها من السفر الى الجنوب، لترصد الفضاء، من زاوية جديدة ومختلفة. وقد توصلت الى اكتشاف مائة واثنتين واربعين نجمة، من اصل ستمائة اكتشفها سواها من العلماء، منذ ان بدأ بحثهم في هذا المجال عام ١٨٦٠ . ولم تكتف باكتشاف النجوم، بل كتبت، بالتفصيل، ونشرت نتائج ابحاثها في مجلات اقليمية وعالمية.

وفي العام ١٩٤٧ صدر اول كتاب لها، توجّهت فيه الى العلماء، ترشدهم الى المصادر والمراجع التي كتبت عن «**النجوم المتقلبة**»، و«**عناقيد النجوم الدائرية**». وفي العام ١٩٥٠ حصلت على جائزة كبرى تقديرا لأبحاثها. كما انتُخبت عضوا في الجمعية الملكية في كندا. وكانت المرأة العالمة الأولى التي تحظى بهذا الشرف.

* * *

وظلّ عملها شاغلها ومركز اهتمامها. مع تقدّم ادوات الرصد، اندفعت خطوات أبعد في النجاح. ولم تكن تخاف المغامرة مهما بلغت حدودها. فقد عملت بايمان، ولها قول مأثور: «**ان عالم الفلك، بلا إيمان، هو إنسان مجنون**». نعم. العوالم البعيدة الغامضة، قوّت إيمانها، وجعلتها تُقدِّر اي نظام عظيم يدير هذا الكون. وهذا الإيمان هو مصدر قوتها، وقد ساعدها لتقبل غياب الزوج وهو في اوج

العطاء والشباب. واندفعت بعده تتابع رسالته، وتقفز من نجاح الى نجاح. وظلّت خلال ذلك، الأم والأب، فأوصلت أولادها الى أرفع مراتب التحصيل العلمي. وقد سار احدهم في طريق والديه، على درب النجوم.

وفي العام ١٩٥٥ نشرت كتابا جديدا، حول «**النجوم المتقلّبة**»، يضمّ صور النجوم الجديدة، وبينها تسع وتسعون نجمة من اكتشافها.

* * *

أُغدقت عليها القاب شرف، ومُنحت جوائز عديدة. وطلبت منها المؤسسة الوطنية للعلوم ان تدير برامجها الفلكية؛ فكانت المرأة الأولى التي تتسلم هذا المركز. وانتخبت رئيسة للجمعية الملكية لعلم الفلك عام ١٩٥٧ . وفي العام ١٩٥٨ منحتها جامعة **هوليوك** دكتوراه فخرية في العلوم.

وبقيت برغم انشغالها، الأم المسؤولة، والجدة التي تَسعد بأحفادها. فقد عرفت كيف تجمع بين العلم وفن بناء البيت والعائلة. ونجحت في كلا المجالين، لأنها تعلمت ان تحمل المسؤولية، وان تجعل الجسم يعمل بانسجام مع العقل والقلب والروح...

- كتاب النساء في العلم الحديث. تأليف: إدنا يوست.

سيمون دو بوفوار

«نحن لا نولد نساءً... بل إننا نصبح كذلك»...

يبدو العنوان باهتا، اذا ما اقترن باسمها.

بل اكاد اشعر بيدها تمتد، من خلف ستار الابدية، لتمسح الكلمات، ثم تترك الموضوع بلا تسمية.

في الواقع، يصعب جدا وضع وجهها ضمن اطار، او رسم دائرة حول قامتها الادبية، الثقافية، المتفاعلة مع نصف قرن من تاريخ حضارة القرن العشرين.

* * *

سيمون دو بوفوار، أو الذكاء الشجاع. رائدة قادت المسيرة النسائية في طرق لم تسلكها من قبلها قدم، بتلك الجرأة والقوة. وهي تختلف عن سواها من النساء، بأن طريقها لم تكن ممهّدة، واختارت في سلوكها المركب الصعب. كما ان ارادتها الصلبة قادت خطواتها لتنغرز اعمق، وابعد، في دراسة المرأة، ومعنى كيانها. وقد فعلت ذلك، لا من موقع النظريات، بل من التجربة والمعاناة الشخصية.

وسيمون نسيج وحدها. ومهما حاولت النساء تقليدها، فانها تبقى النسخة الأصيلة. ويبقى صوتها الأول والاقوى. كما تستمر، حتى بعد مماتها، اشارة مميزة على مفترق طرق الحضارة العصرية.

* * *

ولدت **سيمون** في التاسع من شهر كانون الثاني، عام ١٩٠٨، في باريس، من عائلة تنتمي الى الطبقة الوسطى. والدها كان رجل قانون. ووالدتها سيدة مجتمع، محافظة على التقاليد. كانت تتوق الى ان تنشأ ابنتها، نشأة عادية، وتعد نفسها لتكون زوجة وربة بيت.

تلك الام، لم تتمكن طوال حياتها، من ان تفهم ابنتها. بل انها، في بعض مراحل علاقتها، مع تلك الابنة الغريبة، كانت تخافها، من دون ان تعبّر عن ذلك الشعور. وبالطبع، احاسيس الابنة، كانت تلتقط الرموز، وردود الفعل، فتسجلها في اعماق الذاكرة، ثم تكتبها فيما بعد، في مؤلف خصصته بأمها.

* * *

تربت **سيمون** مثلما يفرض في فتاة تنتمي الى طبقتها البورجوازية. وحين تقدمت لامتحانات الفلسفة، وكانت قد بلغت الحادية والعشرين من عمرها، جاء ترتيبها في النجاح، بالدرجة الثانية. اما الدرجة الاولى، فقد كانت من نصيب زميل لها، يدعى **جان بول سارتر**. وكان في الرابعة والعشرين من عمره. رفقة المقعد الدراسي، مع هذا الشاب النابغ، سوف تنمو مع كل خطوة شاءتها، منذ بدئها، حياة انفتاح وعلم ومعرفة وشجاعة.

لا شك في ان **سارتر** اثر، بأفكاره المتقدمة الحرة، على زميلته المتفوقة. وكانت لها الموهبة الفذّة، لا لتستوعب تعاليم الاستاذ الصديق، وحسب، بل وكل جديد يأتيها مع رياح العصر.

وصدف ان جاءت مرحلة وجودها في الحياة، في مناخ من

الخصب الفكري والادبي، والتحول السياسي، فشاركت فيها جميعا، بعقل ذكي واحساس مرهف...

وحين يكتب المؤرخون والنقاد، عن هذا الثنائي الادبي والفلسفي **(دو بوفوار وسارتر)** فهم يضعون **سيمون** في مرتبة التلميذة. ويبقى لباحثي المستقبل، ان يخبرونا الى اي حدّ تتلمذ **سارتر** على يد تلك المرأة الفذة؛ اذ كانت شجاعتها وإقدامها وجرأتها الفكرية، مدارس جديدة انفتحت امام فتيات العصر، لتنهل منها الاجيال الطالعة. ولا تزال قائمة، الى اجل لا يمكننا تحديده.

* * *

يقدّم سارتر شهادة رائعة في رفيقة الدرب، وقد سارا معا، على خطين متوازيين، فيقول: «**المدهش لدى سيمون دو بوفوار ان لها ذكاء رجل، واحساس امرأة..**».

وحين نتعمق في دراسة اعمال الكاتبة، نكتشف انها، في كل ما كتبت، كانت ضد تصنيف من هذا النوع، وضدّ تخصيص الرجل، بالذكاء، والمرأة بالحس المرهف، اذ كانت نظرتها الى الاثنين، نظرة انسانية، موضوعية، من خلال الواقع، وبنتيجة تجاربها، ومن خلال دراساتها وغوصها في تاريخ المرأة، في الحاضر وفي التاريخ. وظلت كتابتها هادئة، عادية، وغير مميّزة عن سابقاتها من الكاتبات، الى ان وضعت كتابها الموسوعي عن المرأة وعنوانه «**الجنس الآخر**» وكانت في حينه، تضع علامة عند منعطف هام في حياتها الخاصة، وفي ادب المرأة عامة.

صدر كتابها عام ١٩٤٩ . اي بعدما اجتازت الكاتبة تجربة عميقة،

حزّت اعماقها، وكتبت عنها فيما بعد قصصا، وسجلت احداثها روايات.. واعني الحرب العالمية الثانية، وما خلفت من فتك في الارواح، ودمار في العمران، وظلم العدوان.

واحدث عملها ضجّة كبرى، لا في الاوساط الثقافية وحدها، بل وفي المجتمع عامّة. وتعرّضت المؤلفة لسيل من النعوت والتهم. فتصدّت لمناوئيها بجرأة، ووقفت لعملها، بشجاعة، اذ كانت تدرك جيدا انها لم تتجنّ على احد، فقد كتبت بموضوعية وصدق واخلاص. وبما ان هذه العناصر كانت في اساس عملها، فلم يلبث ان شق سبيله، مثلما هو منتظر لمثله من الاعمال العظيمة...

والكتاب بحث تحليلي عميق، يستلهم احوال المرأة عبر العصور، والتمييز الذي وضع الرجل في مرتبة اعلى من مرتبتها. ولم تكتف بتحليل الماضي، بل اطلقت صرختها في الحاضر، عبر اسئلة، شاءتها مهمازا في خاصرة العصر: «**ان المرأة لم تنجح، لم تحصل على حق الا ما شاءه لها الرجل...**».

و «**المرأة لم تمد يدها لتأخذ حقها، بل كانت تنتظر دائما ان يعطى لها...**».

و «**نحن لا نولد نساء... بل اننا نصبح كذلك**».

و «**بالنسبة اليّ، فاني اعترف بكل صراحة، وتأكيد، بأن النساء، في العمق، يختلفن عن الرجال. اما الذي لا اقرّه، مطلقا، فهو ان تكون المرأة مختلفة عن الرجل**».

ولم تترك **سيمون** ناحية من شخصية المرأة ووجودها، وعلاقتها بنفسها وبالرجل، والمحيط، الا وتناولتها بدقة وعمق، وبأسلوب سلس،

ولغة واضحة، جعلتها تدخل الى عقول القراء واذهانهم، من دون عناء. وهذا ما جعل كتابها مرجعا، بل ينبوعا من الدفق الحسّي، نهل منه الباحثون والكتاب وكل من امسك قلمه، وغمسه بحبر الانوثة.

* * *

حين توفيت **سيمون دو بوفوار** بتاريخ ١٤ نيسان عام ١٩٨٦، تناولت المجلات والصحف سيرتها واعمالها، بحثا ونقدا. وقد اختارت احدى المجلات النسائية الكبرى في فرنسا عنوانا جريئاً استوقفني... في الحقيقة، لم يكن عنوانا، بقدر ما هو اعتراف جيل لاحق بفضل الاديبة، ومغزى العنوان: «**السيدة التي صنعتنا**»... وقيل ذلك، على لسان المرأة الفرنسية، طبعا. لكن اثر **سيمون** تعدى حدود وطن وشعب، وطاف الكون، عبر كتبها وكلماتها، واستقبلته المرأة، في الشرق، كما في الغرب. وسرُّها انها لم تفصل بين ادبها وبين حياتها، فكلاهما وحدة متماسكة. وفي اعمالها، كانت تسجل ايقاع الخطى، ووقع التجارب، وتاريخ النقلات الفكرية والوجدانية. كما لم تهمل تفاعلها مع الذين تتصل بهم عن طريق القربى، او العاطفة، والوجدان، الى الصلة الانسانية، التي عمّقت تجربتها، وباعدت مدى رؤيتها، وجعلتها تتداخل في قضايا العصر الثقافية منها والسياسية والانسانية. اذ كان محور اهتمامها الانسان، كائناً من كان، وانّى وجد...

لقد كتبت عن نضال المرأة الفرنسية في الحرب العالمية الثانية، مثلما كتبت عن المناضلة الجزائرية **جميلة بو باشا**. وكانت مواقفها تلك، تنسجم مع مواقف **سارتر** ممّا دفع الاثنين الى واجهة الاحداث،

وجعلهما مثالين لاجيال من الشباب الذي ينشد الحرية الفكرية والسياسية، في كل مكان. وتلخّص سرّ علاقتها بـ **سارتر** فتقول: **«احببت دائما ان احتفظ بحريتي وفضولي وحبي للحياة، وعزمي على الكتابة. وكان سارتر يفهم ذلك كله، ويشجعني..»**.

* * *

فعلا، ان هذه العلاقة المثالية، والتي استمرت مدى الحياة، كانت علاقة فريدة، ترتكز على الانسجام التام بين المفكرَين. وقد دفعت **سيمون** لتكتب عام ١٩٦٤ فتقول: **«كان في حياتي نجاح اكيد، هو انسجامي مع سارتر. طوال ثلاثين سنة، لم نفترق سوى ليلة واحدة». ثم تتابع: «اما الامر الوحيد الجديد والمهم، والذي يمكن ان يَحدث لي، هو التعاسة... تعاستي حين ارى سارتر ميتا. او حين اموت قبله. احيانا استعجل النهاية، كي اخفف من وطأة هذا القلق الذي يأكلني»**. لكن **سارتر** بشر. ومثل سائر البشر، مرض وتوفي في ١٥ نيسان، عام ١٩٨٠ . ولجأت **سيمون** الى عزلة نفسية، وخصّصت وقتها كله للكتابة عن رفيق العمر. وصدر كتابها عن **سارتر** بعد اربعة اعوام من تاريخ وفاته. ولم تكن تصدق، ان العمر يصل بها الى تلك المرحلة. لكنها لم تغب عنه. ويقال انها انتقلت الى شقة تطل منها على قبره. وكأنها كانت تحصي دقات الساعة التي تقرّبها منه، بل تجمعها به، في الموت، مثلما جمعتهما معا الحياة.

* * *

انها، لا شك، قصة حب غريبة جمعت بين اثنين من اهم مفكري عصرنا. هو رجل، متحرر من عقدة التعالي، ولا يجد غضاضة في

الاعتراف بأنه «**مدين لها بكل شيء. ثقتها الكاملة بشخصي جعلتني اشعر بالامان. وحين كانت تنتقد بعض اعمالي، كنت احس اولا بالغضب، ثم لا البث ان اوافق على رأيها، لا من قبيل المسايرة، بل القناعة، لان ملاحظاتها دقيقة وموضوعية..**».

وهي المرأة الحرة، الواعية الرحبة التفكير والآفاق، تتفهم اخطاءه، ولا تعاتب، ولا تثير غيرتها الفتيات الجميلات طالبات الفلسفة، والمعجبات بالاستاذ العظيم...

وله في ما كتبت آراء اورد منها قوله: «**انها كاتبة ممتازة. والذي يميّزها، هو تلك الصلة المباشرة مع الحياة والناس. وهذا هو الفارق بيننا. فأنا لا اتصل بالجمهور، بل اخاطب اشخاصا يفكرون ويتأملون. وهي قادرة على طرح مواقف الاخرين، على بساط البحث، انما بأسلوب ودي. وهي لا تتعالى على قرّائها. وحين تتحدث عن نفسها، فكأنها تتكلم عن الغير. ولها تلك الموهبة على ارضاء ذاتها، وانقاذها في آن واحد، مما يجعل كل قارئ يتعرف على نفسه من خلالها. وسيمون ليست قاسية، كما انها غير متساهلة، وأقرّ بأني لا املك هذا التوازن في ذاتي. اما المسافة المضبوطة بين سيمون والادب، فسببها واضح تماما؛ انها تقف على مسافة مضبوطة من الحياة**»..

وشهادة **سارتر** مهمة، لانه الوحيد الذي عرفها في كل الحالات. ويمكنه ان يؤدي شهادة صادقة عن امرأة احبها، ووجدت هي فيه كل ما تتمنى و «**استطيع ان اقاسمه كل شيء. منذ الوهلة الاولى علمت انه لن يخرج من حياتي، مطلقا**».

وتذهب **سيمون**، ابعد من ذلك في اعترافها اذ تقول: «**كثيرا ما تنزّهنا على ضفاف السين، وكان سارتر يشتري لي من فوق الارصفة، روايات فانتوماس. ويأخذني في المساء لنشاهد معا افلام رعاة البقر. لقد احببت تلك الافلام بعدما كنت متعلقة بالافلام الجديّة، التجريدية والتجريبية..**».

وكان ذلك في المرحلة الاولى من حياتهما معا. وبالطبع، لم تكتف **سيمون** بقراءة **فانتوماس**، بل قرأت كاتبات سبقنها امثال **فيرجينيا وولف**، الاختين **املي وشارلون برونتي**، كما احبت ادب معاصر لها، هو **ارنست همنغواي**. وتقول ان **سارتر** علمها البساطة، والاهتمام بالاشياء الصغيرة في الحياة.

* * *

وقد لجأت الكاتبة الى حياة زاهدة كي تتمكن من الاستمرار في عطائها الزاخر في الرواية (لها تسع روايات) والدراسات (**اهمها الجنس الاخر والشيخوخة**) والسيرة الذاتية (اربعة مؤلفات). كما لها ابحاث نشرت في اهم المجلات الفكرية... هذا اضافة الى محاضراتها في جامعات **اوروبا واميركا**. وتسجل في الزهد شهادة فتقول: «**عشت حياة زاهدة. وساعدني ذلك على التقدم في دراستي، والانتهاء من مرحلة الدرس، كي اتحرر واتفرغ لما اريد انا عمله. واكتشفت بأن تأليف كتاب، يختلف كل الاختلاف، عن تحقيق النجاح المدرسي. وكان كتابي الاول مجموعة قصص رفضها الناشر (غاليمار). وعرفت طعم الفشل الاول. لكن ذلك لم يكسرني. كنت شابة في الخامسة والعشرين من عمري، فأية اهمية**

لرفضهم كتابي؟.. ولم يكن هناك مخرج افضل من تأليف كتاب افضل».

* * *

وسيمون، التي ركّزت على قضية المرأة، انطلاقا من تجربتها الشخصية، لم تهتم اولاً بالسياسة. لكن وعي كُتّاب الصف الاول، في **فرنسا**، وسواها من الدول الاوروبية لخطر حرب جديدة، جعلها تدخل في صميم التحرك السياسي. وكانت بين الذين وقّعوا بيانا ضد الحرب، اعدّه الكاتبان **رومان رولان واندريه جيد**. غير انها لم تدرك حقيقة الحروب وبشاعتها، الا بعدما عاشتها: «**بعد شهر حزيران ١٩٤٠ تغيرت اشياء كثيرة، الناس، الازمنة، والاماكن.. وانا، نفسي، تغيّرت**».

كما انخرطت في حركة سرّية لمقاومة الاحتلال النازي لوطنها. وبعدما تحررت **فرنسا** عام ١٩٤٤ اشتركت الكاتبة في هيئة تحرير مجلة «**الازمنة الحديثة**»، وكتبت مقالات في غاية الجرأة والقوة. كما وقفت الى جانب الشعب الفرنسي في رفضه الحرب، ضد شعوب الهند الصينية. واشتركت في توقيع البيان الشهير الذي حمل توقيع مائة وواحد وعشرين كاتبا من اهم كتاب **اوروبا**، اعلنوا رفضهم استخدام السلاح ضد الشعب الجزائري. وفي مطلع الستينات، ناضلت في لجنة «**العمل من اجل جميلة بو باشا**» المناضلة الجزائرية، التي اصبحت بطلة كتابها. واشتركت **سيمون** في «**محكمة راسل**» التي انشأها الفيلسوف البريطاني **برتراند راسل** لمحاكمة **اميركا** عن جرائم حرب **فييتنام**.

* * *

ولسيمون دو بوفوار وجه آخر تراه نساء من عصرها. وقد قامت احدى المجلات الباريسية باستفتاء لمعرفة آراء الشخصيات النسائية المرموقة، فقالت الكاتبة والسياسية **فرانسواز جيرو:**

«الغريب اني لم اتعرّف عليها، انما عرفت سارتر جيدا. قرأت المذكرات، وكتابها العذب عن وفاة امها. وكتابها «الجنس الاخر» مهم. كانت لها الجرأة لتكتبه. لم يساعدها سارتر او سواه. والذي يثير فيّ الشفقة انها اصبحت زوجة مكرّسة، وحتى مطيعة، كي تقوى على احتمال النساء في حياة سارتر..».

اما الكاتبة جيرمين غرير فتقول: «لا استطيع، مطلقا، ان افهم علاقتها بسارتر. سيمون دو بوفوار خنقت مواهبها، وهي تجري خلف سارتر. عاشت حياة ممتعة. وكان من الافضل لها الا تربط حياتها به..».

اما **ايف روغييري** فتقول: **«تبدو لي امرأة واقعة تحت تأثير سواها. بشّرتْ بتحرير المرأة وبقيت هي متكلة على سارتر. عاشت محمية، في ظل رجل كبير. وهي فتاة من اسرة كريمة. جرّت وراء خطها المشع جيلا بكامله. واني احترم مواقفها السياسية».**

اما مندوبة **اميركا** السابقة في الامم المتحدة، **جين كيركبا تريك** فلها رأي مختلف اذ تقول: **«كانت تنقصها الامومة. وربما امور اخرى. وهي ضحية رفضها للمألوف. وهذا ما حدّ من تحركها..».**

وهناك آراء لكاتبات الجيل الجديد في فرنسا تعبر عنها **آن غاريتا** فتقول: **«سيمون دو بوفوار لا تعني لي شيئا. القضايا التي اثارتها، مرّ عليها الزمن. لم نكن، انا وزميلاتي في الليسيه، نطرحها**

موضوعا للبحث. لا اجد في اعمالها الوحي الادبي. كانت بورجوازية صغيرة، لكنها مهمة كمحطة في تاريخ المرأة».

وتعوّض شهادة **اليزابيت بادينتير** من كل السلبيات:

«كانت امي الروحية، مثلما كانت لملايين النساء في العالم. والغريب، ان المرأة التي لم تكن صورة للحنان والدفء البشري، اصبحت اما لجيل كامل. يدها فتحت لنا الآفاق. وهي علّمتنا الحياة. وسوف تظل مقيمة في اعماق كل واحدة منا. حتى ولو اختلفنا معها، فاننا نبكيها أماً..».

* * *

والمرأة التي سارت ضد التيار، لم تعاقب على ذلك، بل كوفئت بعدد من الجوائز الكبرى، بينها جائزة **غونكور**، اكبر الجوائز الادبية في **فرنسا**. وجائزة الدولة النمساوية للادب الاوروبي. كما حصلت على عدد من الدكتوراه الفخرية من جامعات زارتها وحاضرت فيها. ومهما تعددت فيها الاراء وتناقضت الشهادات، **فسيمون دو بوفوار** ستبقى، والى امد بعيد، مثالا للمرأة الذكية، المثقفة، والواعية لوجودها. لم تضع حدودا بين ما كتبته عن نفسها، وعن الآخرين، اذ كانت واعية، في كل حرف خطّته، العلاقة الوثيقة التي تربط بين الانسان ومكانه وزمانه. وقد جعلت قراءها، يعيشون معها، ايقاع الخطى وهي تتنقل في الحياة، من الشباب الى الشيخوخة. ولم تبخل على قرائها بآخر قطرات قلمها:

«اموت ميتة خاصة بي. هناك قطرة حياة لكل واحد منا، ولا يدركها الآخرون.. انما تبقى الحياة، هي نفسها، للجميع...»

- الجنس الآخر - سيمون دو بوفوار مجلة «إلْ» ٢٨/٤/١٩٨٦ .
- مجموعة من المجلات الصادرة اثر وفاتها في نيسان ١٩٨٦: الأهرام ٢٢/٤/٨٦ اخبار اليوم ٢٢/٤/٨٦ .
- سيمون دو بوفوار - الأدب النسائي - تأليف فلورانس زغيب - الجامعة اللبنانية.

جوسلين كرين

«كيف يمكن للإنسان ان يقضي عمره فوق اليابسة ولا يتمتع بهذا الجمال».

جوسلين كرين امرأة من عصرنا. اختارت طريق العلم منذ طفولتها... وعلم الحيوان بصورة خاصة.

كان منظر الحيوانات يفرحها، وتجذبها صورها في الكتب. وكلما صغر حجم تلك المخلوقات التي تدبّ فوق اليابسة، او تسبح في البحار او تطير في الجوّ، ازدادت ولعاً بها.

وعندما بلغت السادسة من عمرها كانت قد اتخذت قرارها بأنها ستعمل مع الحيوانات طوال حياتها.

هل هو حب بالغريزة؟ العالمة لا تعرف، انما اهلها، والمقرّبون من طفولتها، كانوا متأكدين من ان اغلى هدية يمكن ان تقدّم اليها هي كتاب يضم صورا او قصصا عن ذلك العالم المحيط بالانسان... عالم الحيوانات...

* * *

وهل كانت لديها افضلية في اختيار موضوع دراستها؟..

اجل... المخلوقات الصغيرة، الصغيرة جدا، والغريبة، الطريفة مثل السرطان، وتلك البعيدة في غابات **آسيا وافريقيا**.

وحالما باتت قادرة على القراءة اخذت تجمع الكتب التي تحمل اخبار البلاد النائية. **اسيا**، مثلا، كانت تسحرها. خصوصا مناطقها الحارة. ولم تكن تفرّق بين القارة كأرض، والمخلوقات الغريبة التي

تتآوى في زواياها. ولم تكن واثقة بأيها يستهويها اكثر، ويثير اهتمامها. وعاشت في شوق دائم الى الرحيل والسفر، لا الى المناطق الباردة، شمال **الصين**، او **التيبيت** او جبال **حملايا**!.. بل الى الادغال الكثيفة الغامضة في المناطق الحارة.

وبعدما درست طبيعة البلاد الاسيوية انتقلت الى جمع المعلومات عن ادغال **افريقيا واميركا الجنوبية**.

* * *

نادرا، ما يعرف الطفل، في سنواته الاولى، ماذا يريد ان يفعل. لكن **جوسلين** كانت واثقة بأن اختيار الطفولة هو للحياة... خصوصا وانها كانت البادئة، ولم يكن هناك من سبقها الى هذا المجال في عائلتها او في محيطها. لكن الصعوبة التي ستواجهها، هي انتقال العائلة من بلد الى آخر، وبسرعة.

ولدت في **سانت لويس** في **الولايات المتحدة**، عام ١٩٠٩ . ولما بلغت السادسة من عمرها، اي سن بدء الدراسة، انتقلت عائلتها الى بلد آخر. ثم لم تعد تستقر في مكان.

دخلت احد عشر معهدا، في سنوات دراستها الست الاولى، من الشاطئ الغربي الى الشاطئ الشرقي. واختلطت في رأسها الاسماء والوجوه والاماكن. لكنها ظلت ثابتة على امر واحد: هو قرارها التخصص في علم الحيوان. وبما ان هذا لم يكن متوفرا في المعاهد الثانوية، فقد بدأت بدراسة العلوم، الفيزياء والكيمياء، والرياضيات كخلفية لتخصصها التالي.

كذلك كانت تراجع برامج الجامعات، لتعرف ايّها يحقق لها

امنيتها. وقد اقتنعت بأن جامعة «**سميث**» يمكن ان تكون بوابة دخولها الى دنيا العلم المنشود.

* * *

كان، العام ١٩٢٦ حين وصلت الفتاة الفارعة الطول، الزرقاء العينين الى «**نورثمبتون**» بولاية «**ماساتشوسيت**».

كانت تعرف جيدا لماذا هي هناك. غير انها لم تستطع ان تختار مادة اختصاصها قبل نهاية سنتها الجامعية الثانية. والى جانب دروسها في علم الحيوان درست علم الفلك، لان من يختار البحث في دنيا الحيوان، يحتاج الى مرافقة علم الفلك، فالغابات والادغال تضيّع روّادها احيانا، وكثيرا ما كانوا يعتمدون على النجوم والكواكب لتهديهم من ضلالهم. وبالطبع، كان ذلك في مطلع هذا القرن.

* * *

لم تكن **جوسلين** طالبة عادية. فأساتذتها جميعاً كانوا يعرفون انها تقوم بأبحاث، جمعت لها معلومات غزيرة، وهي على طريق تخصصها. ولم يخضعوها للامتحان، الا في نهاية السنة الرابعة. وفي الوقت نفسه كانت تعد اطروحة ضمنتها خلاصة ابحاثها المخبرية والطبيعية. كما درست، الى جانبها العلوم، والاداب. وحين تخرجت سنة ١٩٣٠، حصلت على ارفع الامتيازات التي تعطى في الجامعة، ثم التحقت فورا بجمعية علم الحيوان، في **نيويورك**. وبالطبع، عملها لن يكون في مكتب، في احدى ناطحات السحاب... اذ لم تلبث ان انتقلت الى مختبر الجمعية في جزيرة «**نانساتش**» في «**برمودا**» لتبدأ

مرحلة جديدة مع استاذ كبير في هذا الحقل هو الدكتور **وليم بيبي**.

* * *

مع الدكتور **بيبي** بدأت دراسة اعماق البحار، والمخلوقات العجيبة المقيمة فيها. وكان قد ابتكر الجهاز الخاص بهذه الدراسة **(باتيسفير)** وتعلمت من استاذها كيف تستخدم الجهاز، وتدلّيه الى اعماق البحر، كي تجمع الحيوانات في شبكة خاصة.

وحلّت لحظة الحماسة القصوى حين دعيت الى الدخول في كرة لتقوم برحلة الغوص الاولى الى اعماق المياه.

* * *

تذكر العالمة، ان اهم ملاحظة سجلتها (وهي تثبت عينيها على الفتحة الزجاجية في الجهاز، وتراقب مخلوقات البحر، تسبح من حولها) ان لون الماء كان يتحول الى الازرق المخضر، ثم يصبح غامق الزرقة لدى تشظّي شعاعات نور من بعض الحيوانات.

ثم جاء دور مراقبة الحيوانات الملونة، وعادت اليها احلام طفولتها: كيف يمكن الانسان ان يقضي عمره فوق اليابسة ولا يتمتع بهذا الجمال؟.. خصوصا وان الحيوانات تتحرك، بحيوية ونشاط. وتعيش حسب قوانين طبيعية خاصة بها. اجل، هذا ما كان يهمها: ان تدرس سلوك الحيوانات، في جماعاتها، ثم في تفاعلها مع الاصناف الاخرى. واكثر ما اثار اهتمامها السرطان، وسلوكه. وكانت تفكر ان فهم اسرار الحيوان يساعد على كشف امور علمية، لم يتوصل العقل البشري الى معرفتها. وركزت اهتمامها، تدريجيا، على دراسة سلوك الحيوان.

* * *

حتى تلك المرحلة، لم تكن **جوسلين** قد حصلت على شهادة دكتوراه. وكان عليها ان تختار بين ان تنفق وقتها وجهدها في الاعداد للشهادة، او تمضي في ابحاثها ودراساتها على الطبيعة. وقد فضّلت الخيار الثاني. لكنها لا تنصح سواها من الباحثين الشباب باتباع طريقتها لانها، كما تقول: كانت محظوظة انها بقيت تعمل مع الجمعية والدكتور **بيبي**، في مجالها المفضل. لكن اذا قررت ان تبحث عن عمل اكاديمي كالتعليم، فلن يكون لها غنى عن الدكتوراه مهما كانت درجة نبوغها: «**لقد غامرت، وكان حظي كبيرا، ولا اوصي غيري بالمغامرة، الا اذا كان من عشاق البحث ومن اصحاب الفضول والتوق الى المعرفة**».

وهي امرأة محظوظة حقا. فبعد مرور خمس سنوات على تخرجها من الجامعة، قامت بأول رحلة علمية الى **آسيا**، واستقرت في قرية **بكردستان**، كي تدرس انواع الحشرات التي تعيش في جبال تلك المنطقة. وفي يوم التقت صبيا صغيرا، يرتدي معطفا احمر. ولما رآها الفتى، مد يده الى جيب داخلي في معطفه، واخرج سنجابا صغيرا سرقه من عش في احدى الاشجار. كان الحيوان مولودا قبل ايام. وهذا ما كانت تريده بالضبط. فهو ما زال في طور من النمو لم يمكّنه من تعلم اساليب الكبار. شاءت ان تدرس سلوكه الغريزي، واذا كانت تربيته، بعيدا عن قبيلته ومحيطه يبدل في طباعه...

* * *

وبينما كانت تعمل، في احدى الليالي، اصيب السنجاب الطفل بنوبة رعب، واندفع الى الموقد، حيث احرقت النار طرفا من فروته، ثم

هرب، وتسلق الجدار واختبأ في ثقب هناك، حتى حان موعد عشائه.

لحسن الحظ لم يؤذه الحريق، فربطته بشريط ناعم، كي يتحرك، على مسافة تقع ضمن حدود مراقبتها، لتتعرف على سلوكه خارج المنزل. واطلقت عليه اسم «**شادراك**».

وبدأ «**شادراك**» يألف صحبتها، حتى اذا سمع وطء اقدام او نباح كلب، اندفع، واختبأ في احد جيوبها. لكنه لم يكن يخاف كل الحيوانات. وراقبت تآلفه مع الجرذان، حتى سماحه لها بتناول بقايا طعامه. وقد سجلت ملاحظاتها وتجاربها على سلوك الحيوانات القوارض. ثم عادت الى **كاليفورنيا** والى الاوقيانوس الهادئ، لتتابع دراسة السرطان على شواطئ تلك المنطقة.

* * *

كانت تدرس نماذجها حية، قبل ان تنقلها الى المختبر في **نيويورك**، حيث تخضعها للتشريح، استكمالا للدراسة.

ولاحظت ان لون السرطان يتحول اذا تعرض للشمس. ولون الذكر اجمل وابهى، بينما لون الانثى باهت. ومثلها الصغار. ثم تابعته، وهو يحفر في الارض الرملية، ليبني بيته. واكتشفت أن هناك ثلاثة اصناف هندسية. وسجلت تعامل هذه الفصيلة مع الجزْر والمدّ، وسائر الحيوانات البحرية الاخرى. كما سجلت أن هذا الحيوان الغريب، يشعر بارتفاع الموج قبل حدوث ذلك بخمسين دقيقة. وهذا يعطيه وقتا كافيا للهرب وتهريب الصغار.

وجمعت العالمة نتائج دراساتها، وصورت نماذجها، لتقدمها في المحاضرات العلمية التي تلقيها في الجامعات. وحين يسمعها الناس

تتحدث عن كشوفاتها، يكفون عن لومها، وتزول دهشتهم امام اختيارها حيوانا تافها للبحث في اصله وفصله، وتاريخ سلالته، ثم في سلوكه الاجتماعي، والنفسي. طبعا، في العلم ليس هناك شيء سخيف تافه. ودراسة الحيوان والنبات هي الخلفية التي اعتمدها العلماء، لدراسة الانسان.

* * *

ولم تذهب دراسة الفن سدى: إذ ساعدت العالمة في اتقان التصوير، خصوصا الافلام السينمائية الملونة التي سجلتها، ونقلتها الى الناس، لتعرفهم إلى عوالم ومخلوقات لا تخطر لهم في بال. وذلك يزيد غنى العقل وفرح القلب. فالعلم هو الحياة. ومن مهماته الاولى فتح النوافذ والابواب على بهاء الحياة ومعطياتها. لكن جوسلين، لم تبلغ حلمها الطفولي: زيارة الادغال. وكان عليها ان تنتظر حتى العام ١٩٤٢ حين كلفتها دائرة الابحاث العلمية الاشراف على مركز اقامته في **كاريتو، بفنزويلا**، لتنطلق في عملها، الى درجة بعيدة، وتقرر اقامة محطة ابحاث دائمة **لاميركا الجنوبية**. وراحت تطوف بين **فنزويلا، كولومبيا والاكوادور**، لتجد النقطة الافضل لبناء المحطة. ولم يكن ذلك بالعمل السهل. اذ كانت تسافر بالطائرة، وفوق ظهور الأحصنة او البغال. وتطوف بين الادغال، يرافقها إلحاح تلك الطفلة الصغيرة، التي احبت الحيوان، وحلمت بغزو الأدغال...

* * *

وعالم الحيوان شاسع، والاصناف متنوعة، لا يحصيها العد، ولا يحيط بها العلم، مهما تقدم. وها هي تنتقل في **الانديز وترينداد** الى

دراسة الفراشات. وفراشات تلك المناطق كبيرة. واجنحتها فاقعة الالوان. وقد سحرها اللون، وتحوله لدى الحيوان، منذ مغامراتها الاولى في اعماق البحر. وها هو يسحرها، في الالوان القزحية، لدى الفراش. لكن التساؤل كان: ما هي علاقة تلك الالوان، بالسلوك الاجتماعي؟... لم تتوصل العالمة الى الجواب الكامل عن هذا السؤال.. لكنها وجدت بعض جواب حين ازالت الغبار الملون عن اجنحة بعض الفراشات وطلتها بألوان مختلفة. ولاحظت ان ذكر الفراش لا يهتم بالانثى اذا طليت اجنحتها باللون الاسود. كما ان الذكر والانثى خدعا بالألوان الصناعية، واثارهما معا اللون البرتقالي المائل الى الاحمر. إذاً، فاللون في الفراش، ليس عبثا، وهناك علاقة وطيدة بينه وبين السلوك العام. وهو كذلك في الحيوانات الاخرى.

* * *

بعد الحرب العالمية الثانية، عادت العالمة تتابع دراستها في آسيا و افريقيا. وفي مطلع الخمسينات رصدت لها المؤسسة الوطنية للعلوم مبالغ من المال، كي تقوم بمشروع دام خمس سنين، لاستكمال دراسة السرطان. وكان هذا اطول واجمل مشروع من نوعه، سجلته بالكلمة والصورة المتحركة الملونة. وقدمت لعلم الحيوان خدمة هامة. وبالطبع، لا تنحصر خدماتها بالعلماء، اذ ان الانسان وحدة مترابطة مع الكون من حوله. والحياة هي نفسها للجميع.

* * *

جوسلين كرين لم تبدل فلسفتها. انها تعمل من اجل لذة العمل. وهذا لا يقلل من اهمية عملها في ميزان النقد العلمي. اذ تعتبر ان

دراسة الحيوانات التي ركزت عليها، تساعد سواها، من الباحثين، في فهم سلوك الحيوانات الاخرى. ذلك ان العلم حلقات مترابطة لا تفصل بينها الازمنة، ولا حدود المكان.

وكان تطلعها، في السنوات التالية، صوب الحشرات، والحيوانات الدنيا، التي لا تستحق عند البعض، لفتة او تسمية. فالعلم لا يحتقر شيئا. حتى الذرات الصغيرة، لها حسابها. حتى الغبار فوق اجنحة الفراش... وقد قطع العلم شوطا بعيدا في مجال الأبحاث الطبيعية، ودخل على الخط علماء آخرون، وبالطبع، لا تنحصر الدراسات في بلد واحد. واذا كانت نتيجتها المتعة، وتحقيق الامال لاصحابها، فقد خدمت الانسان عموما فأضافت بُعداً آخر، الى وجوده، ومدماكا جديدا، الى الوان معرفته. والأبحاث العلمية، التي بدأتها، **جوسلين** وزملاؤها، (وكانوا روادا لها في حقبات مختلفة) تنتشر اليوم، وتتعمق، على ايدي افراد يدركون ان المعرفة تزيد الوجود جمالا وغنى...

* * *

وجوسلين كرين ليست عالمة اختارت مجالا طريفا، كي تحقق احلامها، وتجسد طموحها وحسب، بل هي رائدة شجاعة، لم تتبع خطا ممهدا سهلا، بل وضعت هي العلامة الاولى على الخط. وشجاعتها كانت المركب الذي حملها بعيدا في العلم، وعميقا في ادراك مغزى الوجود.

- نساء العلم الحديث. تأليف: إدنا يوست.

تشيانغ شيونغ

«لها كل الحق ان تُدعى أهم عالمة في حقل الفيزياء الاختبارية».

عبر هذا الوجه الجديد، الخارج من خلف الأساطير، نحاول ان نتعرف الى المرأة الصينية، لا كما هي، في بلادها، بل في إحدى حالات تخطّيها ذاتها وحدود عالمها.

* * *

من قبل، كانت الحكايات ترسم لنا صورتها التقليدية: امرأة نحيلة، ضئيلة الحجم، متوارية خلف اسوار التقاليد. تتسلمها الأيدي منذ الطفولة؛ تضع قدميها في خفين من حديد، تُبقيهما مقيدتين، باسم الجمال والعادات المتوارثة...

وترسم الاساطير صورتها، رافلة في اثواب الحرير الذي تحوكه اناملها. خاضعة للرجل، سيدها. تُنَفِّذ اوامره، من دون ان تجرؤ على رفع نظرها اليه...

وفي النصف الاول من هذا القرن، هبّت على بلادها رياح جديدة، بدّلت، وغيّرت، وخرجت الينا صورتها الحديثة: امرأة مناضلة، واقفة في مستوى قامة الرجل، كتفها الى كتفه، ويدها تسند يده في العمل والبناء.

* * *

ولا أدّعي تخطّي الحدود، لولوج عالمها، بل اكتفي بنموذج خرج الينا، الى العالم، وأثبت مقدرة المرأة الصينية على التفوق، لا في

حياكة الحرير ورسم المنمنمات فحسب، بل في العلوم، وبالتحديد، علم الفيزياء والذرة.

نعم: المرأة الناجحة، المتخطية، المتغلبة لا تقيدها حدود... وهذا ما ينطبق على شخصية العالمة **تشيان شيونغ وو**، او **ماري كوري** - الصينية.

* * *

ولدت **تشيان** في ٣١ ايار عام ١٩١٢ في مدينة **ليوهو** من مقاطعة **تشيانغسو** في **الصين**. ولم تكن تختلف عن اية فتاة في جيلها، وفي وسطها الاجتماعي. ابوها **وو زونغيي** كان مدير مدرسة. وهذا ما جعله يوجه اولاده نحو العلم. وقد أحاط ابنته واخويها بالكتب، وراح يراقب جهودهم ويحثهم على المطالعة، من دون ان يفرق بين الفتى والفتاة. وكانت **تشيان** تحب اللعب، الا انها مالت، منذ الطفولة، الى القراءة. واول ما قرأت تاريخ بلادها، وتقاليد شعبها، لتنشأ متشبِّعة بحضارة عريقة، هي حضارة قومها. وتعلمتْ، من تلك الكتب، كيف تحب تراثها القديم، وكيف تُقدر وتحترم المسنين، مثلما احبت الآداب والفنون الصينية...

وتصف تلك الفترة من حياتها بالمرحلة الرائعة والسعيدة:

«كنت طفلة محظوظة وسعيدة».

* * *

بعدما انهت دروسها الابتدائية، في بيئتها، ارسلها والدها الى بلدة **سوتشو** لتتابع دراستها الثانوية. ومن تلك المرحلة، عرفت بعض التحولات التي سيكون لها اثرها في مستقبل حياتها: فقد بدأت

تدرس، الى جانب الصينية، اللغة الانكليزية. وتعرَّفتْ الى بدء العلوم الفيزيائية، واحبتها. لا تذكر لحظة بالذات، جعلتها تأخذ القرار، فقد كان التطور منطقيا، ومنسجما مع طبيعتها، وانتمائها الى عائلة، هَمُّ ربها الاول: العلم، والمزيد من المعرفة.

* * *

وجدت **تشيانغ** لذة فائقة في العلم. وبدأت تدرك انها تميل الى صنف من المعرفة اكثر من سواه؛ ويصادف ان يكون هذا الصنف المختار علم الرياضيات والفيزياء: «**بدأت ادرس العلوم الفيزيائية، وشعرت بتجاوب عميق يدفعني الى المزيد من الاطلاع. كانت هناك قوة ذاتية توجهني**».

وحين تخرجت من المعهد الثانوي انتقلت الى جامعة **نانكينغ** الحكومية. ولم تكن هناك نسبة عالية من الفتيات في الفرع الذي اختارته. وفي العام ١٩٣٦ انهت دراستها الجامعية، وظلت تطلب المزيد من المعرفة في حقل الفيزياء، الذي لم يكن متوفرا لها في حينه. وقد ساعدها اهلها على ان تسافر الى **الولايات المتحدة**، وتلتحق باحدى جامعاتها. وفي خريف تلك السنة، تسجلت **تشيانغ** في جامعة **كاليفورنيا**.

* * *

صادف دخولها الجامعة تعيين الدكتور **إرنست لورانس** مديرا للمختبر الاشعاعي في الجامعة. وكان منصرفا الى تطوير اكتشاف جديد له، وهو عبارة عن آلة لتفكيك الذرّة تُسمى **سيكلوترون**. وقد احرز جائزة **نوبل** في العلوم الفيزيائية الذرية، بينما كانت الآنسة **وو**

تلميذته. واعتبرت نفسها محظوظة في ان تكون قريبة من ذلك العالم، باحثة في مختبره، مطلعة على الاسرار المحيطة بعلم لا يزال يستقطب اهتمام العلماء في كل مكان...

* * *

الى جانب التركيز على الدراسة، كان على الفتاة الصينية، ان تتعلم، عبر لغتها الانكليزية المكتسبة، ما لا تعرفه عن المحيط الجديد، وتقاليد الحياة الاميركية؛ وهي غريبة عنها، وبعيدة جدا عن تقاليد عالمها. وقد ساعدها الاختلاط بطلاب وطالبات من كل انحاء العالم، فحاولت ان تتكيّف قدر الامكان، حتى انها تعلّمت الطبخ، وتقبّلت بعض التقاليد الاجتماعية، الا انها لم تستسغ الرقص، واكتفت بالاستماع الى الموسيقى.

وذِكْرُ الموسيقى مهم، اذ كانت سبيلها للتعرف الى طالب علوم من وطنها **هو لوك تشا – لْيو يوان**. فقد كان مولعا بالموسيقى الشرقية والغربية، يعزفها ويصغي اليها. ولم يلبث ان وقع في غرام جديد...

* * *

اكثر من موضوع كان يجمع بينهما: فهناك الوطن البعيد، والخلفيات المشتركة، وولعهما بالعلوم، وبالموسيقى. وعرفت **تشيانغ** ان القدر اختار لها هذا اللقاء الرائع، لتكتمل سعادتها، وتتابع مع لوك مسيرة العمر.

وقد واجهتها صعوبات اجتماعية كثيرة، فالفرق شاسع بين الحضارة الصينية والاميركية، لكن الطالبة الشابة لم تجد أية صعوبة في دراستها؛ كانت لها القدرة على ان تحل اشد المسائل تعقيدا. وقد

طُلب منها ان تعطي دروسا في الجامعة، بعد انقضاء نصف سنة على التحاقها بها. وثابرت على التدريس الى جانب ابحاثها، حتى تخرجت، حاملة شهادة دكتوراه في الفيزياء عام ١٩٤٠ .

* * *

كانت المرحلة الاخيرة من الدراسة وإعداد الاطروحة فرصة لإظهار التفوق والتميز في المقدرة العلمية؛ ففي دراستها للاشعاع أبدتْ الآنسة **وو** مهارة فائقة في ابتكار أساليب جديدة لفصل نوعين من الإشعاع. كما تمكنت من التوفيق بين النتائج المخبرية والنظرية. اما الدراسة الثانية، فقد انطلقت فيها من نقطة الانشطار النووي لمادة **اليورانيوم** التي اعلنتها الجامعة. وركزت على بحث الغازات الاشعاعية المنبعثة من تلك المادة وكان يساعدها احد الزملاء فتمكنت معه، من توفير معلومات هامة، لم تكن معروفة لعلماء الفيزياء من قبل...

وبنتيجة تفوقها في مرحلة الدراسة، وما بعدها، طلبت اليها الجامعة ان تعمل في المختبر الاشعاعي، وبذلك تكون المساعدة الاولى للدكتور **لورانس**.

كانت بلادها في حالة حرب، فلم تستطع العودة الى **الصين**. وهنا، ايضا، تُذكّرنا بالظروف التي مرت بها سالفتها، **مدام كوري**، واستحالة عودتها الى وطنها الأول، **بولونيا**.

لم يكن امامها مجال للتردد. انها فرصة نادرة، تجعلها تنصرف كليا الى ابحاثها في العلوم، وكشف المزيد من الألغاز. لكن المختبر لم يلبث ان تحول الى مركز للبحوث الحربية. وانتقلت الدكتورة **وو** الى جامعة **سميث** كأستاذة لمادة الفيزياء فيها. وقُبَيْل انتهاء العام الدراسي

وجهت اليها جامعة **برنستون** دعوة لتدرس علم الفيزياء الذرية لطلابها. وذلك بحد ذاته حدث يسجل، اذ كان تعليم تلك المادة وقفا على الاساتذة الذكور.

وتعزو هذا الطلب، بتواضع العالمة، الى ظروف الحرب: «**كانت الحرب على اشدها، ولم يكن هناك عدد كاف من المدرسين**»...

لكن الواقع هو انها اختيرت، بغض النظر عن الجنس او الجنسية؛ إذ كانت مؤهلة لتحمل هذه المسؤولية، وتقوم بها خير قيام...

* * *

لم تكد تنخرط في العمل في تلك الجامعة حتى وردتها دعوة جديدة، ومن جامعة **كولومبيا** وقبولها الالتحاق فيها كان يعني مساهمتها مباشرة في المجهود الحربي، وتعمّقها في فهم أسرار التجارب النووية.

مع بدء شهر آذار عام ١٩٤٤، أصبحت العالمة عضوا في فرع الابحاث الحربية، في **جامعة كولومبيا**. واستمرت في التجارب، باذلة جهدها كله في تطوير ادوات تكشف الوجود الإشعاعي.

* * *

بعد الحرب، تابعت الدكتورة وو أبحاثها ودراستها مع التركيز على الاهتراء الذي يصيب اجزاء من الذرة تدعى اجزاء **بيتا**. لقد كانت النظريات موجودة، انما تحتاج الى البراهين العلمية. وكانت اساليب الدراسة هزيلة، فعملت على تقويتها. كما ابتكرت طرقا جديدة لمعالجة الموضوع. وقد تابعت الدراسة في هذا المجال بالذات الى ان

نجحت في تثبيت نظرية **فيرمي**. وفي العام ١٩٥٢ اصبحت العالمة استاذة الفيزياء في **جامعة كولومبيا** مع متابعة الأبحاث السابقة.

وقد تمكنت، من خلال الطلاب الذين تتلمذوا على يدها، ان تطور علم الفيزياء والابحاث الذرية، لا في الجامعة وحسب، بل في المجال العلمي اطلاقا، وعقلها الخارق، يقفز من تجربة الى اخرى، ويتسلق سلالم الصعود... وقد لفتت انظار العلماء في سائر الجامعات...

وفي العام ١٩٥٦ جاءتها فرصة العمل مع عالمين في حقل الفيزياء من اصل صيني. واسترعى عمل الثلاثي انظار العالم، وبنتيجته، حصل رفيقاها على جائزة **نوبل** العلمية لذلك العام.

* * *

تابعت الدكتورة وو تجاربها، مع العالمين؛ فانتقلت الى موضوع جديد، انطلق من التشكيك بمبدإ التكافؤ؛ وكان مقبولا ومعترفا به لمدة ثلاثين سنة. ثم جاءت تجاربها لتدحضه، وتثبت نظرية جديدة لم تكن معروفة من قبل؛ فانهالت عليها رسائل الإعجاب والتقدير من كل صوب. وحصلت على خطوة شرف جديدة في تحصيلها، حين منحتها **جامعة برنستون** دكتوراه فخرية. وانضمت الى الاكاديمية الوطنية للعلوم، فكانت المرأة السابعة التي تنضم الى تلك العضوية خلال مائة سنة. وأول امرأة من اصل اجنبي. وانتخبت لرتبة استاذة مميزة في جامعة **كولومبيا**، كما انتخبت لعضوية اكاديمية **سينسيكا (اي الاكاديمية العلمية في الصين)**.

* * *

لم ترجع الى بلادها، لأن ابحاثها كانت تشغل كل لحظة من حياتها، والفرص متوفرة لها، الى أقصى الحدود. واعتبرت عملها خارجا عن حدود بلد بالذات، فهو يخص الانسانية بأسرها.

ومما قالته لطلابها، عام ١٩٥٨ في مجال التحدي العلمي: «**ان قصة قانون التكافؤ تظهرُ ان العلم في تحول مستمر، وفي نمو دائم. والذي يدفع عجلة العلوم الى الامام هو تلك الشجاعة التي تجعلنا نشك في النظريات العلمية السائدة منذ القدم، وتبقينا في بحث متواصل عن الحقيقة**».

وفي طليعة الشكوك التي تخامرها وتقلقها، اذا كانت الجامعات الاميركية المتقدمة على صعيد العلم، تغرس حب العلوم في نفوس الطالبات، وتشجعهن على الانخراط في البحوث، فهي دائما تتساءل: «**لماذا تظل نسبة الطالبات، في الفروع العلمية، ضئيلة، وغير فاعلة؟**» وبالطبع، لا تعزو ذلك الى عدم قدرة المرأة على خوض هذا المجال، فيما هي متفوقة علميا في بلدان عديدة.

اما فلسفتها في الحياة، فتتلخص في افساح المجال امام المواهب، لكي تنمو، الى اقصى مداها.

* * *

لقد توصلت الدكتورة **وو**، بفضل الجهود التي بذلتها، الى ان تصبح واحدة من اهم العلماء المعاصرين. وهي احدى النساء المتفوقات والرائدات في عصرنا. لم يسبق لجامعة **برنستون** الشهيرة ان منحت امرأة قبلها درجة دكتوراه فخرية. وقد اعلن رئيس الجامعة يَوْمَ منحها ذلك الشرف، ان «**لها كل الحق في ان تدعى اهم عالمة في**

حقل الفيزياء الاختبارية». كما كانت سابقة يوم اختيرت لمرتبة استاذة الفيزياء الذرية في اهم مركز علمي في الولايات المتحدة.

* * *

وعلى الرغم من هذا النجاح كله، تبدو الدكتورة **وو** بعيدة عن المظهر العلمي الجاف: إنها، كمعظم نساء قومها، ضئيلة الحجم، ترتدي اللباس التقليدي الصيني، والذي يعجز معطف المختبر عن إخفاء اطرافه؛ وهي تشير الى ارتباطها الوثيق بالأرض التي أنبتتها. إنها، على رغم السكن في الغرب، لا تزال الإبنة الوفية لشعبها. واذا ما قُدّر لك ان تصافح يدها القوية، فانك تلمس فيها حرارة تتخطى العرق والقومية. وفي مصافحتها، دعوة الى الآخر، ليقترب من حقول العلم، بكل الانفتاح والتحرر الفكري. واذا نجح في ذلك، فهو يعبر جسرا من الفهم العميق، يربطه بالعالمة التي تحاول تبسيط العقد، وحلّ الألغاز المستعصية.

* * *

كتبت الموسوعة البريطانية، في مجال تعريف العالمة: **«ان اكتشافها احدث ثورة في نظرية الفيزياء الذرية. وان تجاربها المخبرية، خصوصا في موضوع تأكل الذرة والتي أكدتها سنة ١٩٦٣، أثبتت اسمها في سجل العلماء الخالدين»**.

* * *

غريب ان تسجل قصة امرأة، من خلال لغة العلوم الفيزيائية. فقد بقيت حياة **تشيانغ** الخاصة، بعيدة عن الأضواء التي تسلطت على نجاحها العلمي. ومع ان زوجها لم يكن يقلّ عنها كفاءة، الا ان عمله

كان في مجال آخر، وفي ذلك تفترق عن **ماري كوري**، التي عملت مع زوجها، في كل نقلة. وحين سقط في منتصف الطريق، تابعت، بقوة وكأنها تعمل لشخصين.

* * *

كان العلم، والبحوث، والتدريس، الثلاثي الذي كرّست العالمة وو من اجله حياتها ووقتها، ولم يؤخرها عن القيام بدور مهم في حياة المرأة، وهو ان تكون زوجة لرجل تحبه وتنسجم معه في المشارب والأهداف. ولهما ولد، يتابع خطهما العلمي، وقد ورث عن والديه الذكاء والموهبة، وحب العلم، والسعي المتواصل الى البحث عن الحقيقة...

- نساء العلم الحديث. تأليف: إدنا يوست.
- الموسوعة البريطانية.

كورازون أكينو

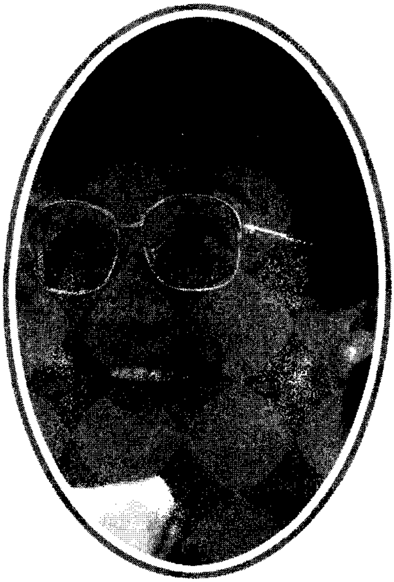

«إني أحذّركم يا سادة... هذه آخر مرّة تحاولون فيها تلقيني دروساً في السياسة...».

صرخات النصر تطوّقها.

اسمها يعلو فوق الصرخات الحماسية، اسمها ينطلق من حناجر شقّقها الجفاف، ومن شفاه ذابت ابتهالاتها في لظى توقها الى الحرية.

- **كوري... كوري... كوري...**

اسم التحبب. ينادونها به، بعدما انهار الجدار العتيق الذي ارتفع بين الحاكم والشعب طوال عشرين سنة.

وتقفز هي الى مقدمة المسرح، تطلّ على الجمهور الذي حفظ الامانة، ورفعها، بقوة ارادته، لتكون السيدة الاولى الرئيسة والحاكمة، محطما بذلك التقاليد المألوفة.

* * *

حدث ذلك في شهر اذار عام ١٩٨٦، وانتصرت **كورازون اكينو** على خصمها، ومناوئها الشرس، **فرديناند ماركوس**، رئيس الفلبين والحاكم الدكتاتوري فيها منذ عشرين سنة.

وهي امرأة صغيرة القد، طولها خمسة اقدام وبوصتان. رقيقة كالخيط لكن رقتها مجبولة بالصلابة والعزم وقوة الارادة. وقد عاشت مدة ثمان وعشرين سنة في ظل زوجها، السياسي الشعبي المحبوب: **بنينو اكينو**. وكانت الى جانبه الظل الخفي، الزوجة وام الاولاد. لم تعرف مكانا خارج بيتها. ولا لعبت دورا يذكر في الحياة العامة. بل

ان زملاء زوجها في النضال السياسي يشهدون أن **كورازون** لم تكن توحي اليهم بأنها اكثر من ربّة منزل عادية.

لكنها التجربة، وعمادة النار تحوّل المرء الى طاقة يعجز عن تصورها الخيال.

اسمها الاول: **كورازون كوجوانكو**. مولودة عام ١٩٣٣ من اسرة ثرية، بمقاطعة **تارلاك** في جزيرة **لوزون**. عاشت عائلتها في مزرعة لغرس قصب السكر. لكن العائلة لم تكن بعيدة عن السياسة؛ فالجد كان عضوا في مجلس الشيوخ وابوها انتخب عضوا في مجلس الشعب. وهي درست في معهد للراهبات. وكانت العائلة تعدّها لتكون ربّة بيت ممتازة. واستكمالا لاعدادها ارسلت الى معهد في **نيويورك** حيث درست المواضيع التي تصقل شخصيتها، وتجعلها سيدة مجتمع راقية. وقد تخصصت في المرحلة الجامعية بالرياضيات واللغة الفرنسية، طامحة الى أن تصبح مدرّسة او تعمل في الترجمة، خصوصا وانها تلمّ بعدة لغات: فالى جانب الفرنسية تتقن اللغات: الانكليزية، الاسبانية، اليابانية ولغة شعبها: **تاغالوغ**.

وتذكر زميلات الدراسة أن **كوري** كانت لطيفة، ناعمة، ولم توح يوما بأنها سوف تكون القائدة السياسية، والمكافحة الصلبة التي شهد العالم باعجاب، خطوة نجاحها. لكن الزميلات يذكرن جيدا ايمانها القوي ومنذ مطلع حياتها.

* * *

وقد ظلت تلك المرأة العادية الرقيقة، حين عادت لقضاء اجازتها المدرسية في وطنها، والتقت صدفة تلميذ الصحافة **بنينو اكينو**،

فاحبّها، وبادلته الحب، ثم تمّ زواجهما في حفلة تقليدية، وعادت معه الى **الولايات المتحدة**، حيث كان يتابع دراسته في العلوم السياسية. وحين رجع الى **الفلبين**، انخرط في العمل السياسي، بينما انهمكت الزوجة في مهمات اخرى: المنزل، والاطفال (انجبت خمسة اولاد) وهذه المسؤوليات دفعتها الى ملازمة البيت، معظم الوقت، وعدم مشاركة زوجها في الحياة العامة. وقلّما كانت تشاهد برفقته، حتى في المناسبات التي تحضرها زوجات السياسيين.

عاشت **كوري** حياة ظل حقيقية وكانت تشعر بأن حياتها تكتمل بنجاح زوجها، وتحقيق امنياته. وبهدوء منزلها، والقدر الكافي من الطمأنينة والراحة التي يمكنها توفيرها، لكل فرد.

وكان ذلك كله عظيما بالنسبة الى حياة الزوجة العادية.

* * *

لكن الحياة المطمئنة الهادئة لم تدم؛ ونعيم الاستقرار العائلي بدأ يتزعزع عام ١٩٧٢ حين زجّ رئيس البلاد، **فرديناند ماركوس** عددا من السياسيين في السجن؛ وكان **بنينو** بينهم.

وقد قضى في السجن سبع سنين، وبات على الزوجة ان تتكيّف مع قسوة الحياة الجديدة. وحين كان يسمح للعائلة ان تجتمع في الاعياد، كانت الام **اكينو** تحمل اولادها الخمسة الى السجن، ليقضوا ليلة العيد مع الوالد. ويحوّل الحب الزوجي، الزنزانة المظلمة الرطبة، الى قصر منيف، تنيره اعين الصغار، الذين تولّت الام المثالية تربيتهم، محاولة التعويض من نقص حضور الاب.

تلك التجارب الصعبة، كانت الخطوة الاولى على طريق طويل،

محفوف بالتحدي والخطر. وفي زنزانة السجن تلقت المرأة درسها الاول في السياسة.

* * *

عام ١٩٧٨ اصدر الرئيس **ماركوس** امرا يسمح بموجبه لاعضاء المعارضة بترشيح انفسهم للانتخابات. واعلن **بنينو** ترشيحه من داخل السجن. ووجدت **كوري** نفسها امام واقع جديد: سوف تتحرّك بدل زوجها، لتقوم بالحملة الانتخابية، وقد قالت بأن تلك السنين الصعبة اكسبتها تجربة كبرى، اذ اعطتها الفرصة كي تحل المسائل المعقدة، من دون ان تعتمد على الآخرين. لكنها عادت من جديد الى مكانها في الظل، حالما خرج زوجها من السجن... وقد خرج منتصرا... وكان الشعب يحس بثقل الظلم الذي الحقه رئيس البلاد بقائد شعبي محبوب. وفي الواقع، ان سنوات نجاحه كانت حافلة بالنضال، والتصارع مع القوى الشريرة التي تسلّطت على البلاد، وألحقت الاذى بالشعب.

* * *

وبالطبع، كان الرجل يشعر بالتهديد حين قرر ان ينقل عائلته لتقيم في الولايات المتحدة مدة ثلاث سنوات. لكن اخبارا مطمئنة جعلته يعود الى **الفلبين**، ويبلغ مطار **مانيلا** في الحادي والعشرين من شهر آب سنة ١٩٨٣ . ولم يكن يعلم ان الموت ينتظره حال يطأ ارض الوطن: فقد صرعه بالرصاص احد رجال **ماركوس**. اغتيل **بنينو** او **نينوي**، كما عرف لدى الشعب، باسم التحبب. وفجأة وجدت الزوجة نفسها في وسط الاحداث...

وحين جمعت اولادها وعادت الى الوطن، لم تكن غايتها ابعد من اتمام واجبات الدفن وتقبّل التعازي بالزوج. لكن الشعب الذي اثاره الاغتيال، التفّ حولها، وساندتها الجماهير، وامدّها ذلك بالقوة والشجاعة. ونهض في نفسها شعور جديد دفعها الى تحدّي الواقع من اجل ذكرى الزوج، وهي المؤمنة، لم تُخفِ عن المقربين حلما ظل يتردد وكأنه رمز، او اشارة من روح الراحل العزيز: «**كنت ابصر نفسي في مكان غريب، وامامي نعش فيه جثمان زوجي، فأمدّ يدي وارفع غطاء النعش، واجده فارغا...**» وقد فسّرت هي الحلم حسب ما الهمها ايمانها: «**انها روح الزوج، تنتقل اليّ، وتنغرز في اعماقي.. وتمدّني بالقوة**».

وفيما كانت المعارضة تنوي مقاطعة الانتخابات العامة عام ١٩٨٤، اتخذت **كوري** موقفا معاكسا وراحت تحث جماعتها على الاشتراك، وصدق حدسها، فربحت المعارضة ثلث المقاعد، وباتت قوة شرعية يحسب لها حساب. هذا النجاح كان غذاء لروحها، اذ قوّى ثقتها بنفسها، ورفع معنوياتها، وجعلها على خط يتجه ابدا الى الامام.

* * *

وقد عادت بعد ذلك الى الجامعة التي تخرّجتْ منها في **نيويورك**، لتتسلّم شهادة دكتوراه فخرية، وفوجئت زميلاتها بها: لقد ولدت ولادة جديدة. ولم تعد الفتاة الهادئة، الرقيقة، والضعيفة. وها هي تعلن في خطاب الشكر الذي توجهت فيه الى ادارة الجامعة بأن: «**الايمان ليس بالصبر وحده، واحتمال الألم ريثما تمر العاصفة. الايمان هو الروح التي تغمر الاشياء بزهد، انما بأمل متوهّج...**».

ولم تقبل ان تخوض الانتخابات الرئاسية التي حضتها المعارضة على خوضها. لكن الخلافات، التي بدأت تدبّ بين الاعضاء، جعلتها تدرك انها وحدها، كأرملة **بنينو**، تستطيع ان تجمع الشمل، وتوحّد الصفوف. وكان السؤال المخيف يتصدى لها: «**ماذا تعرفين عن الرئاسة؟...**»

لكنها، ومثلما تعودت منذ ان فقدت زوجها، عادت تستلهم ايمانها، وتعاليم الزوج، وخصوصا عبارته الاخيرة لها، حينما حاولت ان تقنعه بعدم العودة الى **الفلبين**، اذ كانت تخشى عليه مؤامرة مناوئيه، فقد قال وهو يودّعها: «**لن اغفر لنفسي اذا تردّدت في تقديم كل ما لديّ، من اجل القضية...**».

* * *

وها صوته يعود من خلف القبر، يلاحقها في كل لحظات ايامها ولياليها. وتتساءل بصدق واخلاص:

- **وانا، هل اغفر لنفسي تردّدي؟...**

وحين قررت خوض المعركة الانتخابية، حاولت اسرتها ان تثنيها عن ركوب المركب الصعب، خصوصا وانها ام لخمسة ايتام. وكان جوابها مقنعا: «**حين تصبح لديّ القناعة، بأنه من واجبي القيام بعمل معين، فلن أتردد لحظة...**».

* * *

وفعلا لم تتردد **كوري**، محبوبة الشعب، والتي نذرت ان ترتدي اللون الاصفر دائما، اكراما لذكرى زوجها.

كانت تعمل بمعدّل ست عشرة ساعة من اليوم. وتزور المناطق النائية. وتقف وسط الجماهير، ولا تخشى ان يطلق عليها احدهم الرصاص.

كانت محبّة الشعب تساندها، وذلك الايمان القوي.

وكانت الجولة الاخيرة في الانتخابات، هي الاصعب؛ فقد تصدّى لها الرجل العجوز **ماركوس**، واعلن من موقع الشرعية، بطلان انتخابها. وكان العالم يشهد، بواسطة وسائل الاعلام، تصارع ذلك الرجل، المنهار، المتآكل، والمرأة الفتية، ذات الاطلالة العذبة، والبسمة اللطيفة، والروح الشجاعة.

وبرغم كل الاعتراضات، اصرّت هي على موقفها، الذي اعتبرته موقف الحق والعدالة.

وفيما كانت تقسم اليمين الدستورية، قامت خارج القاعة حركة عصيان ضدّ **ماركوس**، امتدت لهبتها الى كل مكان في البلاد.

«اني امرأة عنيدة. قد آخذ رأي الاخرين، لكني في النهاية اعود الى نفسي: ان القرار الاخير، هو قراري».

وحاول **ماركوس** ان يحطم القرار. لكن النيران كانت قد لامست جدران قصره. ونصحه اصدقاؤه بأن يخرج، فالمسرح لم يعد له، والدم الجديد في ارجاء البلاد، يجري على ايقاع النبض الذي يرسله قلب امرأة عرفت الألم. واصيبت في اغلى الناس: الزوج والحبيب. وقد حوّلتها الحادثة الى لبوءة، لا يقدر مظهرها اللطيف الناعم على ان يمحو شراستها...

نعم انها شرسة على طريقتها: ليست دموية، والانقلاب الذي نجح في **الفلبين** كاد يكون ابيض لولا بعض الحوادث التي سببتها جماعات متحمسة: **فكورازون** امرأة. وكامرأة دخلت الحكم، وان كان على جثمان الزوج العزيز.

* * *

دخلته ربّة المنزل المثالية؛ فهي تكره التدخين في مكتبها. تكره الفضائح. ولا تتسامح مع المعتدين على القانون والشرعية. وان كانت تذكرنا، بأخلاقها وسلوكها، رئيسة حققت النجاح قبلها، في ذلك الشرق الاقصى العجيب، واعني **انديرا غاندي**، فيبقى الفرق بين المرأتين كبيرا: انديرا لم تؤخذ على غفلة.

تمرّست في السياسة، لا نظريا بل وفعليا. كانت رفيقة والدها العظيم، **نهرو**، في عمله السياسي داخل البلاد وخارجها. كانت سكرتيرته، حافظة اسراره، وابنته الوحيدة المدللة. وحين جاءت الى الحكم، لم تجد غرابة مثلما كانت الحالة بالنسبة الى **كورازون**.

ولكن ماذا نعرف عن الذات الانسانية؟.. وكم هي نسبة الطاقات التي تستخدمها تلك الغافية، والمنتظرة، حين توضع على محكّ التجربة؟..

* * *

انها ليست حالة امرأة واحدة، بل هي حالة النساء، وفي معظم بلدان العالم. لكنني لست في معرض التقييم والنقد. بل اتابع حكاية سيّدة، ونجاحها.

حكاية امرأة سارت قدما، وسار الشعب معها، لانها جاءت من صميم هذا الشعب، وارتبطت بايقاع خطاه في الوجود. وقد ورثت عن السلف ارثا ثقيلا:

البلاد منهارة اقتصاديا لأن الرئيس السابق هرّب اموال البلاد والشعب الى الخارج؛ وكانت اول خطوة لها أن طالبت المصارف في الخارج، بتجميد اموال **ماركوس** لانها مال الشعب الفلبيني. وعنه ورثت جيشا ضعيفا، صنعه نظام فاسد، وليأتمر بأمره، ابقاه في حالة العجز والشلل. اما النظام السياسي، فلا حاجة الى الاشارة الى اهترائه.

وكوري لا تملك الخبرة لتواجه هذه المسائل الصعبة، وتحل هذه العقد كلها... لكنها تعرف كيف تختار مستشارين خبراء، يساعدونها لتعيد البلاد الى مسارها الطبيعي، وهي ليست ضعيفة، وان كانت تبدي اللين، احيانا، فهي صلبة عندما تدعوها الحاجة الى الوقوف والمواجهة بصلابة وعناد.

* * *

لا حاجة بي الى ذكر نجاحها، الذي حوّل مجرى التاريخ في بلادها. وقد انتصرت على الرجل الذي كان قويا بفضل ظلمه وتعسّفه، وكانت تسانده في موقعه زوجته **إميلدا** المرأة الطامحة، والقصيرة النظر؛ وقد انتصرت عليها **اكينو** مرّة اخرى، حين انتزعت منها ذلك الاعتراف بأنها وزوجها هرّبا اموال البلاد، وهي مستعدّة لاعادة بعض ما تملك، مقابل العودة الى الوطن... فان **جزر هاواي**، مهما تكن جميلة، ليست سوى المنفى. والجالية التي يبلغ عدد افرادها

مائة وخمسين الف نسمة، ليست سوى جالية في المغترب. ولن تقوى، ذات يوم، على تحويل ذرة من رمل الغربة الى تراب الوطن.

* * *

اما داخل البلاد، فقد تحولت **اكينو** الى رمز طالما حلم به مواطنوها؛ انها تعني لهم التغيير والوعد بمستقبل افضل.

ومع ان عمر تسلمها السلطة، لا يتجاوز الاشهر، فقد اثبتت أنها قادرة على الوقوف في مهبّ العواصف، لانها مؤمنة بالحق، وحق الشعب، بالدرجة الاولى، في استرجاع امواله وكرامته: «**ان ماركوس لم يخبئ مال الخزينة في وسادة..**» بالطبع، انه في مصارف اميركية وسويسرية، وقد استخدمت سلطتها الشرعية لتجميد تلك الاموال.

الرئيسة تعرف ماذا تريد. وتعرف الطريق اليه: «**ايها السادة، اني احذّركم، هذه آخر مرّة تحاولون فيها تلقيني دروسا في السياسة**». هذا ما قالته لوزرائها، وكبار أعضاء جبهة المعارضة سابقا. والسيدة لا تمزح. والوضع لا يحتمل المماطلة، وهي مصممة على انقاذ بلادها من الانهيار، وبدل النظام المهترئ، تفرض نظاما سياسياً قويًّا، لان الشعب يستحق ذلك: «**لقد شاهد العالم بأسره، وسجّل، على شعب يركع في طريق المصفحات، وخنق بالعناق والصداقة نقمة جيوش اعدّت لتفريقه. ان العالم بأسره يشهد على شعب يرفع نفسه من الذل، الى اعلى مراتب الفخر والاعتزاز...**».

* * *

عشرون سنة من القهر، انتهت من دون ان تراق الدماء مما جعل

أمهات الصحف العالمية تعلّق على الحدث: «**انها تجسيد عاطفي للديموقراطية**».

طبعا لانها امرأة. وهي تعتمد على حدسها، وحنانها. وتبرهن في كل يوم، أن هذه الادوات التي لم تستخدم من قبل، يمكن ان توضع على محك التجربة. وان اللين ليس نقطة ضعف في بعض المواقف. ويبقى، في خلفية الفكر والعاطفة، وجه الرجل، الذي لم تلتفت الى سواه، حتى بعدما فقدته، وظلّتْ محافظة على حبّها له، ووعدها بأن تسير في خطاه... واذا لم يكن حاضرا، ليشهد انتصارها، وتحقيق احلامه، فان تصرّفها في كل الشؤون يوحي بأنه يسير الى جانبها، ولا تزال يده تتشابك مع يدها في المسيرة الصعبة.

وقد اجابت الذين سألوها، لماذا ترشحت للرئاسة فقالت:

- **لاني ارملة نينوي... ولاني، كوري اكينو.**

مستخدمة اسمي التحبب اللذين اطلقهما الشعب عليها، وعلى زوجها، من قبلها.

وتستمر في عملها بصمت، وليس لها من هدف سوى خدمة وطنها، وتحقيق احلام خمسة وخمسين مليون مواطن انتظروها مثلما ينتظر السائر في ليل العمر، بزوغ النجم الساطع.

يقول صديق لزوجها (أصبح وزير الزراعة في حكومتها واسمه **رامون ميترا**): «**كوري لم تعد المرأة التي تعودت ان تقدّم لنا القهوة، في حضور زوجها... تبدّلت. اصبحت امرأة اخرى**».

والوزير على حق: لقد خرجت من ذاتها تلك المرأة الهادئة، الصامتة، التي تصغي، وتتلقى. ومثلما تتحوّل الشرنقة الى فراشة هكذا

تحوّلت، وطارت، وهي تتابع تحليقها، والعالم يتأمل رحلتها التصاعدية باعجاب وقلق.

- مجلة نيوزويك - بتاريخ ١٠/٣/١٩٨٦ .

- مجلة تايم في ٧/٤/١٩٨٦ .

- بعض الصحف اليومية المصادرة في تلك الفترة.

فالنتينا تيريشكوفا

«إني سعيدة بأن أكون، أنا، الفتاة البسيطة، أول من يُعهد اليها، من بين نساء هذا الكوكب مهمة الطيران في الفضاء الخارجي».

سوف يظل التاريخ يذكر لإِنسان هذا العصر، مغامراته التي تجاوز بها أقصى ما بلغه الخيال في العصور السابقة، وهي عملية اختراقه للفضاء الخارجي، وقيامه برحلات فضائية، ثم التنزه الحر بين الكواكب والمجرات التي كان يبصرها بعين الخيال.

* * *

وبما أن المرأة رفيقة الرجل في وجوده، فهي تضع قدمها إلى جانب قدمه، في مسيرته الأرضية، وتواكبه في كل ما سبق أن حققه من انتصارات. وقد كان لها حضور يذكر، في هذا المجال الصعب، في شخص الصبية السوفياتية **فالنتينا نيكولاييفا تيريشكوفا**.

بين عشية وضحاها، أصبح اسم الفتاة، فوق كل شفة ولسان، وراحت صورة وجهها تأتينا مع خطوط البث من الفضاء الخارجي، والأقمار الصناعية. وكانت تسجل، مع كل كلمة صدى جديداً لانتصار امرأة هذا الزمن.

ولدت **فالنتينا فلاديميروفنا تيريشكوفا** في ٦ آذار عام ١٩٣٧ في قرية **ماسلينوكوفو** قرب **ياروسلافل**. وكان أبوها سائق شاحنة، وأمها تعمل في مزرعة. وقد توفي الأب على إثر انخراطه في الجيش عام ١٩٣٩، مخلفاً أرملة في السابعة والعشرين من العمر. وثلاثة أطفال.

باكراً جداً عرفت **فالنتينا** معنى العمل القاسي، والصراع مع الحياة

لتأمين حياة كريمة. فقد تابعت الأم عملها خارج المنزل، لتؤمن تربية الأطفال في السنوات الأولى بعد ترملها.

وفي **العام** ١٩٤٥ انتقلت مع أولادها إلى **ياروسلافل**، حيث لها أقارب. وهناك التحقت بمؤسسة كبرى للنسيج، وأدخلت أولادها المدرسة.

وحين أنهت **فالنتينا** دراستها الابتدائية، التحقت عام ١٩٥٣ بالمدرسة الثانوية للشبيبة العمالية، وكانت، في الوقت نفسه، تعمل في مصنع لإِطارات السيارات.

* * *

كان العمل، في سن مبكرة تجربة هامة بالنسبة إلى الفتاة. وقد عبرت عن ذلك في مقابلة صحافية، فقالت: «**كم كنت متحمسة لمساعدة أمي. وحين قبضت أول أجر لي سارعت واشتريت لها هدية**»...

عام ١٩٥٥ انتقلت **فالنتينا** إلى العمل في مصنع للنسيج، وظلت تتابع دراستها بالمراسلة، مع معهد تقني للنسيج أيضاً.

وعندما نالت الشهادة، عُيّنتْ مدرسة في معهد للتصليح والميكانيك. أي ان فكرة الطيران والفضاء الخارجي، لم تكن واردة في ذهنها، قبل أن تلتحق بالنادي الجوي عام ١٩٥٨، وذلك بهدف التدرب على القفز بالمظلة.

* * *

وتسجل الصبية في يومياتها حدثاً هاماً حصل بتاريخ ٢١ أيار عام

١٩٥٩ حين قامت بأول قفزة لها، بالمظلة. أي أنها اختبرت معنى أن يتحرر الإِنسان، ولو إلى حين، من التصاق جسمه بالجاذب الأرضي، ويرتمي في قلب المغامرة.

وبالطبع، لم تكن القفزة في الفراغ، إذ توصلت إليها بعد تمرس في القفز ودراسة تقنية صعبة. وبلغ عدد القفزات التي حققتها فيما بعد ١٦٣ قفزة وضعتها في طليعة المظليين.

هذه الخطوة جعلتها تحلم ببلوغ ما هو أبعد من الأرض وجاذبها، خصوصاً وأن طياراً فضائياً إسمه **غاغارين**، كان قد مهد السبيل، بقيامه بأول رحلة فضائية، وذلك بتاريخ ١٢ نيسان من عام ١٩٦١ .

* * *

لحظة لا تنساها **فالنتينا**. كانت تحضر اجتماعاً في منظمة القاعدة «**الكومسومول**» حين أعلن نبأ انطلاق أول رجل إلى الفضاء الخارجي، واقترب منها رئيس اللجنة النقابية في المؤسسة وقال بلهجة لا تخلو من التحدي:

– **هناك رجال يقومون الآن بالتحليق في الفضاء الخارجي، في حين أنك تقومين بالقفز بالمظلة وحسب.**

تذكرت **فالنتينا** كلام أمها لها:

– **جاء الآن دور الفتاة...**

فردت على التحدي:

– **ان النساء أيضاً، سوف يحلقن في الفضاء الكوني.**

وبالطبع، لم تكن تعلم، أو تقدّر، بأنها سوف تكون أولى النساء

الفضائيات... هذا برغم ثقة مدربها، وتشجيعه اياها... فقد كان يردد على سمعها بتحبب:

- آه! يا غاغارين الغد.

ونقرأ من حديث صحفي لها في حينه:

- قبل أن يحلق غاغارين، لم تخطر في بالي مطلقاً، فكرة: أن تصبح المرأة طيّارة كونية. ولكن بعد التحليق الأول، قويت الفكرة عندي، وصارت تتردد في ذهني فأقول في نفسي: يجب أن تقوم النساء بالتحليق الفضائي.. لِمَ لا؟.. وكنت أتصور تلك المرأة، فأراها ذكية، قوية وجميلة.

ثم تساءلت ذات مرة:

- وماذا لو انصرفت أنا إلى هذه المهنة؟

إنما ذلك لم يكن سوى حلم من أحلام اليقظة.

* * *

وجاء يوم، تحقق فيه **حلم الصبية**، لكن بعد الكثير من الجهد والعناء، فهي لم تدرس الطيران، لكن تمرسها بالهبوط بالمظلة أهلها لأن تقبل في برنامج الفضاء الخارجي، حين تقدمت بالطلب، كمتطوعة عام ١٩٦١ .

وبدأت مرحلة التمارين الرياضية، والدراسة الصارمة، ومعالجة الأجهزة الدقيقة، والتدرب على تشغيلها.

فإعداد الطيار الكوني ليس أمراً سهلاً. يجب أولاً أن يتمتع بصحة جيدة، وربما فوق المعدل. وأن يكون واسع المعرفة. ثم عليه أن يدرس

بدقة ومهارة سير عمل السفينة، وجميع منشآتها التقنية. أي على الطيار أن يكون ذا ثقافة جيدة، وجسارة جسدية ومعنوية تكفيه ليصمد لجميع المفاجآت الطارئة. ثم تأتي التمارين الصعبة، والتي تتطلب المقدرة على تحمل درجات الحرارة، ثم التمرّن على حالات انعدام الوزن. وهذه أصعب الحالات.

وفالنتينا كانت مستعدة للقيام بهذا كله. سلاحها معنويات قوية، وشجاعة نادرة، وحب للمغامرات واقتحام المجهول.

ونفذت مرحلة التدريب، فأصبحت ضابطاً في صفوف رواد الفضاء. وأسندت إليها قيادة السفينة المسماة، (**فوستوك ٦**) ومعناها (**الشرق**).

* * *

بكثير من التأثر والفخر، وقفت **فالنتينا** وقفة تاريخية، لتشكر الملاحين الفضائيين، قبل أن تنطلق بها السفينة:

«**إني سعيدة بأن أكون أنا الفتاة البسيطة، أول من يعهد إليها، من بين نساء هذا الكوكب، بمهمة الطيران في الفضاء الخارجي. وسوف أنفذ هذه المهمة النبيلة، كما يجب**».

* * *

في السادس عشر من شهر حزيران، عام ١٩٦٣ ارتدت **فالنتينا** بذلتها الفضائية واتجهت بهدوء وثقة، نحو ساحة الاطلاق، وهي تردد البلاغ الرسمي:

«**الملاحة الكونية تيريشكوفا للتحليق في السفينة الفضائية (فوستوك ٦)**».

وكانت الرقم السادس على سجلّ الرحلات الفضائية. وقبل يومين من انطلاقها سبقها إلى الدوران حول الأرض، زميل لها إسمه، **فاليري بايكوفسكي** وكان يقود (**فوستوك ٥**). وقد عادا معاً في ١٩ حزيران.

وكانت الرائدة الأولى قد سجلت ٤٨ دورة حول الأرض، في مدة سبعين ساعة وإحدى وأربعين دقيقة، مجتازة مسافة تبلغ مليوني كيلومتر.

ثلاثة أيام في الفضاء الخارجي. ما أعظم ما يحققه العلم لإنسان هذا العصر!...

رحلة فاقت الخيال.

وأخضعت **فالنتينا** بعد عودتها إلى الأرض، لعدة فحوصات طبية، لمعرفة مقدرتها، ومدى احتمالها جسدياً ونفسياً، لنتائج الرحلة. وجاء في التقرير: **إن الحالة الصحية ممتازة، كذلك المعنويات.**

وفتحت المرأة بإرادتها وجرأتها، فتحت الباب على مصراعيه، أمام من سيقمن بعدها، بمغامرات مشابهة، أو تتجاوز مغامرتها. ونالت لقب **بطلة الاتحاد السوفياتي**. ولقب **طيار رائد فضاء**.

وعينت أستاذة مساعدة في أكاديمية الطيران. وذلك بعدما استكملت دراستها في هندسة سلاح الجو في **موسكو**، ثم تخرجت عام ١٩٦٩ .

* * *

لا ضرورة لأن نذكر أن هذه المغامرة الرائعة، أكسبت **فالنتينا** شعبية كبيرة، لا في بلادها وحسب، بل وفي جميع بلدان العالم. وصارت

كل امرأة تعتبرها مثالاً رائعاً للبطولة الجديدة، والشجاعة المتفوقة.

أما في وطنها، فقد ترجمت شعبيتها عملياً حين انتخبت نائبة في مجلس السوفيات الأعلى، وعضواً في اللجنة المركزية للحزب.

وقد شغلت، منذ العام ١٩٦٨ مركز رئيسة لجنة النساء السوفيات. وقد انتخبها المؤتمر السادس للاتحاد النسائي الديمقراطي العالمي نائبة رئيسة له. كذلك ترأست **تريشكوفا** عدة مؤتمرات من أجل السلام.

ولم يمنعها عملها، ولا نجاحها من ممارسة حياة امرأة طبيعية. فقد تزوجت زميلها الرائد الفضائي **أدريان نيكولاييف** وذلك بتاريخ ٣ تشرين الثاني عام ١٩٦٣ وأصبحت أماً تمارس حياة عادية مثل كل الأمهات.

* * *

هناك الوجه الآخر الذي تطل به **فالنتينا** على العالم، وهو وجه المرأة التي ذاقت طعم الانتصار وتحقيق الذات والأحلام، وتسعى عبر المراكز التي تشغلها، لأن تساعد غيرها من النساء، كي يتقدمن، ويقمن بأعمال جيدة حيثما كن، في المنزل، أو المصنع والمكتب. كما توجه نداء لطيفاً إلى الرجال، ليحسنوا معاملة المرأة ويقدّروا عملها، بل ويمدوا لها يد المساعدة.

ويبقى لهذه المرأة المتميزة وقت كي تمارس هواياتها، وأحبها إليها الرياضة، والاستماع إلى الموسيقى، خصوصاً الكلاسيكي منها. وأعمال **تشايكوفسكي** في المقدمة. وتقول ان للموسيقى أثراً عظيماً عليها. كما تحب الغناء الجيد، وتؤمن بأن الأغنية الجميلة تساعد في العمل وفي الحياة بصورة عامة.

وتجد **فالنتينا** وقتاً كافياً للمطالعة، وقراءة الشعر والأدب، وذلك برغم انهماكها الدائم، إن في المؤتمرات أو تأدية الواجبات التي يتطلبها عملها ومنزلها.

لن أحاول أن أضع تقديرات لما يمكن أن تحققه المرأة، من انتصارات في حقول العلم والأدب والفن التي ترتادها، بكثير من الراحة والحرية. لكن الأكيد أن اسم **فالنتينا** سوف يبقى مشرقاً كنجمة، تضيء الدروب لأجيال مقبلة. مؤكداً على أن امرأة بسيطة، استطاعت أن تجترح الأعجوبة من دون أي ادعاء. قامت بالعمل، لأنها تؤمن به. حققت الفكرة لتبرهن على قدرة المرأة. وبرغم المسافة التي تفصل عملها التقني المعقد عن عمل والدتها في مصنع النسيج، فقد ظلَّتْ تعتبرها، مثلها الأعلى، في العمل، كما في الحياة.

- مجلة المرأة السوفياتية.
- الموسوعة البريطانية.
- سيرة حياة تريشكوفا - وكالة رويتر.
- نساء من التاريخ - منشورات الجمهورية العربية السورية.

فهرس

جيرتي كوري ٥

إميليا إيرهارت ١٥

مرغريت ميتشل ٣٣

مرغريت ميد ٤٥

بيريل ماركام ٥٧

ادنا غاردنروايت ٧٣

ألفا ميردال ٨٧

بربارة ماكلنتوك ٩٧

هيلين سوير هوغ ١١١

سيمون دو بوفوار ١٢١

جوسلين كرين ١٣٥

تشيانغ تشيونغ ١٤٧

كورازون أكينو ١٥٩

فالنتينا تيريشكوفا ١٧٣

تُقدم فُصول هذا الكتاب، بأجزائه الستّة، وجوهاً لنساءٍ رائدات، من الشرق ومن الغرب. وقد اخترتها بقصد تسليط الضوء على ما مرت به المرأة، عبر العصور، من صراع مع نفسها، ومع محيطها، في سبيل إنماء طاقاتها، وتحقيق طموحها وأحلامها، وبالتالي، بلوغ الرتبة الرفيعة التي استحقتها.

وإذ أضع، بين أيدي قرّاء العربية، هذه النماذج المتغلّبة والمتفوقة من النساء، أتوخى ان تكون كل واحدة من رائدات الأمس، مشعل هداية وإلهام لرائدات الغد.

ا. ن.

نساء رائدات (١) من الشرق

نساء رائدات (٢) من الشرق

نساء رائدات (٣) من الشرق

نساء رائدات (٤) من الغرب

نساء رائدات (٥) من الغرب

نساء رائدات (٦) من الغرب

أبو عبدو البغل